د. رجاء صالح الجبوري

وطنٌ وجديلةٌ وألسنةُ لهبٍ

وطنٌ وجديلةٌ وألسنةُ لهبٍ

جميع الحقوق محفوظة للكاتب وللدار

الطبعة: الأولى ٢٠٢٥

العراق محافظة صلاح الدين تكريت

شارع الزهور مقابل كلية التربية للبنات

9647710651968

9647806391249

9647722413912

Osama196767@gmail.com

ISBN: 9789922832760

المؤلف: د. رجاء صالح الجبوري

الكتاب: وطنٌ وجديلةٌ وألسنةُ لهبٍ

تصميم الغلاف: د. أسامة محمد صادق

لوحة الغلاف: د. زهراء نوح

التدقيق اللغوي: د. رفل حازم خليل

رواية

وطنٌ وجديلةٌ وألسنةُ لهبٍ

د. رجاء صالح الجبوري

الإهداء

إلى حبيبتي نينوى

"رغم أنّ الليالي كانتْ طويلةً إلّا أنّ السنوات مرت بسرعة"

مكتب البريد تشارلز بوكوفسكي

المقدمة

نتكلم عن الماضي كمن يخوضُ في سيّر الموتى، فنحكي عنه بلسان المتسامح، نصفح عن لياليه الثقال، ونصفُ حزنه بأناقةٍ تمنحه أقصى درجات الصدق والعمق، نصورهُ كغلالةٍ سوداءٍ أحاطتْ قلوبنا دونَ أن تمنحنا فسحةً لنتنفس، ونسهب في وصف مالح الدمع الذي شربناهُ لنخفي كسرتنا عن عيون من حولنا ونحفظ لأشجاننا قدسيةَ البعد عن الأنظار، نوجزُ القولَ فيما يتعلق بلحظات السعادة ونجنحُ للإطناب في وصف لحظة السقوط ومراسيم النهوض وتسلق الهاوية.

وفي الحديث عن سالف المسرات نحكي أنها كانتْ مثاليةً مكتملةً كمذاق الحلوى التي لا يُضاهيها مذاقٌ، وطعامُ الجدة الذي لم نستطعم له مثيلًا حتى اللحظة، وسفرةُ المدرسة إلى مدينة الألعاب التي فاقت روعتها كل الرحلات الدولية والإقليمية التي خُضناها فيما تلا من السنين ...

أبطالٌ حكاياتنا كلهم خارقون. الأم التي لا ينفذُ لها صبرٌ، والجدةُ التي لا تبارحُ الحكمةَ لها قولاً أو فعلًا، والآباءُ لا يدّخرون لحماية أمان العش والصغار وقتًا ولا جهدًا، البيوتُ السعيدةُ وغرفُ المعيشة الهادئة والأولاد المطيعون والواجباتُ التي كُتبتْ دون الإستعانة بمجهودات الأبوين، الأطباقُ التي لا تتكسرُ والمقتنياتُ التي عاشت دهرًا، والتحديات التي خضنا غمارها فرادى دون أن نكشفَ ضعفنا لأي جدارٍ، والكثيرُ الكثيرُ من القصص.

دارينا جراحَ الماضي بالكتمان، بالسكوت عن كل مرٍ والإخبار بما هو حلوٌ بالحكي عن الضياء، بينما نتعفنُ في الظلمات، بافتعال الضحكة، بينما تترقرقُ الدموعُ بين الأهداب...

يقدم أغلب الساردين حكاياتهم بإستعاراتٍ تدل على أنهم لم يفلتوا أيةَ تفصيلة من الحكاية الأم، وأن أحداث الواقعة لا تزال تدور

أمامَ أعينهم كشريطٍ سينمائي لا يُغفلُ أيةَ جزئيةٍ، وكأن القصةَ جرت بالأمس فقط ... رغم أننا لو تحرّينا الدقةَ لوجدنا أننا نحتاج لبعض الجهد، وعصرة مخٍ لا بأسَ بها إذا ما رُمنا استحضارَ أحداث الأمس بالتفصيل، ولكننا بالفعل نتذكرُ بعضَ الوقائع، أشياءٌ كلقاء الحب الأول، واولى ليالي الحرب، وبيانُ إعلان وقف إطلاق النار، ويومَ النزوح الأكبر... وغيرها من الأحداث التي واظبَ العقلُ على استذكارها في لحظات الخلو بالنفس وحكيها المتكرر للآخرين . العقل يمحو من الذكريات ما لا نعود لمذاكرته يومًا بعدَ يوم ...

نخلعُ صبغةَ الحاضر على الماضي، فنتكلمُ عن الأمس بلغة اليوم، فعندما أتخيل وقوفي على منصة التخرج لالتقاط صورةٍ جماعيةٍ توثّقُ تلك اللحظة التأريخية، تدورُ عيناي في زوايا الصورة الذهنية التي رسمها عقلي للبحث بين جموع الملوحين لي من بعيدٍ عن أصدقاء التقيتهم بعد ذلك بسنين، وحينَ أحاولُ استرجاعَ وجه أمي أيام طفولتي ... أتخيلُ وجهها أيامَ كهولتها بالغضون والتجاعيد والشعيرات البيضاء الفارّة من طرف شالها، وقد تخرجُ ذاكرتي عن مسارها أبعدَ من ذلك، فأتخيل البنت التي شاركتني أول مقاعد الدراسة بملامح ابنتي.

الحقيقةُ أننا ننسى عمدًا أو عن غير عمدٍ، بعضَ الصور والوقائع، فنرفِ فُتوقَ الذكرى بما تهواه النفسُ، فيأتي الماضي جميلًا ومنزهًا عن كل شائبةٍ، فتتعالى في دواخلنا ووسط أحاديثنا مع أبناء الأجيال التالية أنّاتُ الحنين للعودة لماضٍ نجهلهُ، ماضٍ نسيناه،كما تنسى سماءُ الصيف غيومَ الشتاء.

د. رجاء صالح الجبوري /كانون الأول٢٠٢٤

كابوس

كنت ملقىً على الأرض بين الركام المكسو بالدم وغبار المعركة، ساقي تنزفُ بغزارةٍ حتى أن لغط الدم المتدفق منها كانَ مسموعًا، أنفاسي تتقطعُ وكأنّ فقاعةً تكبرُ في صدري وتكبرُ لتتركني عاجزًا عن الإتيان ولو بشهيقٍ واحد يصل حتى قعرَ رئتيّ ليرويَ ظمأي للهواء، الرؤية تنحسر وبصري يزوغ، الموجودات من حولي تتلاشى واحدةً تلو الأخرى، تثاقل جفناي كستارتين بللهما رشقُ المطر، إزداد لهاثي ونفدَ الهواءُ من صدري ،أغمضتُ عينيّ، شعرتُ أني أغرقُ في غيمةٍ من بخار ، أو أسقط في بحرٍ من نور، أهو الوسن؟ أم أنني أُحتضر؟

لا أدري ما الذي جرى بعد ذلك، أظن أنني غادرتُ هذا العالم لبعض من الوقت .

أراني أمشي في فلاةٍ وصادق يمشي جنبي، أفلتَ كفي بغتةً، ومشى صوب الشمس الغاربة، مشى ومشى حتى اختفى، ركضتُ هنا وهناك بحثًا عنه ،أركض وأنادي :

_صادق .. صادق.

فيرتدُ إليّ الصدى بصوتٍ مريعٍ يشبه نعيبَ بومٍ ينادي بعدي صادق صادق.

ظهرت من بعيد صبية تركض وتتعثر فتكبو على وجهها ،صحتُ بها :

_الله .. الله

انتبهتْ إليّ، كان وجهها يغطيه السخام، ثم فرّت هاربةً نحو الشرق، استأنفتُ مسيري لأتوقف عند إطلال كوخٍ محترقٍ، عقاب ملقى على جنبٍ وقد غابت روحه واحترق ريشُ جناحيه.. وعلى بعد خطوتين أو أكثر كان ثمة عقاب يحجل

على قائمةٍ واحدةٍ والدمعُ يهضلُ من عينيه حزنًا على احتراق العش ورحيل صديقه المأساوي، وما إن تنبه الأخيرُ إلى وجودي حتى صفق بجناحيه وطارَ دون اتزانٍ اولاً، أفلح بعدها بالتحليق عاليًا ..

ألم شديد أيقظني، ساقي تؤلمني إنني أرتجف، البردُ شديدٌ، جسدي يرتفع وينخفض، كنتُ أتألم حتى الموت...فتحت عينيّ إنني محمولٌ على كتف أحدهم .. يركض بي ويصيح :

_ جريح ..جريح

صادق

أدى صادق دور أخي الأكبر على أتمّ ما يكون، رغم أنه يكبرني ببضعة أعوامٍ فقط ...

كنا نتشابهُ كجناحي فراشةٍ، كشقي تمرة، ونختلف كالليل والنهار، كالقمر والشمس كالظل والنور، هو بشُقرة شعره وعنينه الزرقاوين وبشرته البيضاء المشربة بحمرةٍ، وأنا بلوني وملامحي العراقية بامتياز، عينان بلون الشاي الداكن، وشعر أسودٌ كليال الصيف، وبشرة بلون رمال الصحراء تزدادُ سمرةً كلما اشتدت سطوةُ أشعة الشمس على بلاد السواد .

صادق ابن السوق، الفتى الخبير الذي يعرف تأريخ المدينة، وبيوتها وعوجاتها وقناطرها وأبوابها لدرجةٍ يمكنه معها التمييز بين محاليل الموصل وأزقّتها مغمضَ العينين، وأنا رفيقُ الكتب، وارثُ رفوف المكتبة رفًا بعد رفٍ، الزائرُ الدائمُ لمكتبات شارع النجفي، أصدقائي هم باعة الكتب ومتذوقو الأدب والشعر وجلسائي من الكتب، أضيع حين أغادر تلك المساحةَ، أغرقُ في

عالمٍ أجهلُ كنهه خارجَ مكتبتي، بينما يعومُ صادقٌ جيئةً وذهابًا في كل مناحي الحياة .

تعلمَ صادقٌ التأريخَ من أفواه العجائز، وتعلمَ الجغرافيةَ مشيًا على الأقدام، بينما تعلمتهما أنا من مقدمات ابن خلدون والإدريسي.

عاش صادق الحبَ بالتجربة وهو بعمر الرابعة عشرًا، واكتفيت أنا بالحب المتدفق من كتابات محمد لطفي المنفلوطي ويوسف السباعي.

تعلم أخي فن التعامل مع أصناف الناس بالبيع والشراء بالظفر تارةً والفشل تارة أخرى بينما لجأتُ إلى كتب التنمية وتطوير الذات، أنا المتأني المتريث الذي يحسبُ أبعاد كل خطوةٍ وكل قرارٍ يقدم عليه، وصادق ذاك المتسرعُ الذي يتخذُ القرارَ فورَ اندلاع شرارة الفكرة في عقله، ثم يتقدمُ ويشرعُ بالتنفيذ تاركًا دراسةَ الأضرار المحتملة للأيام .

هكذا كنت وكان أخي ، نختلف قدر ما نتشابه؛ لنتكامل كقطعتين متجاورتين في أحجية .

ليلةُ العشاء الأخير كاميرا كوراك الفورية

أمين

كانت ليلةً شتويةً دافئةً من ليالي كانون الأول ١٩٨٦، دافئة رغم أن بردَ كانون كان يحكمُ قبضتهُ على المدينة بهوائها وماءها، رغمَ أن درجات الحرارة هبطت حتى الصفر المئوي في الصباح الذي تلا ليلتنا تلك، كنا نستشعرُ الدفء بكمال العدد، الدفءُ الذي نعيشهُ قبلَ أن ينخرَ بردُ الفقد عظامَ قلوبنا، كانتْ دافئةً وكأنها سرقت دفءَ ليالٍ كثيرةٍ أعقبتها.

كُنا عائلةً بعددً مكتملٍ على اعتبار أننا لم نع وجودَ أبينا في البيت، فقد رحلَ وأنا ابن الثالثة، داهمه الموتُ قبل أن تختزنَ عقولنا ذكرياتٍ عنه.

صادق وضحكته الصاخبة والعودُ على حجره يغني ويدندن ويشاكس أمنا، والطفلان يضحكان ويلعبان مضفيان على جَمعة الأسرة مزيدًا من البهجة.

ضمت تلك الغرفةَ الصغيرةَ بأرائكها الخشبية، والمدفأةُ عتيقة الطراز وقوري الشاي يغلى بهدوءٍ جاثيًا على فوهتها كالنسر، يغطي رخامَ الأرضية سجادةٌ فارسيةٌ حمراء بنقوشٍ دقيقةٍ موروثةٍ عن أم جدتي، وستارةٍ تزينُ ساحتها السكريةَ اللون أزهارُ لوتس حمراء تتدلى من غصيناتٍ بنيةٍ، في تلك الحجرة الصغيرة بأثاثها البسيط المنسق بحبٍ بعيدًا عن لمسات خبراء الديكور، كنا نضحكُ بقلوبٍ ملؤها الأملُ بغدٍ أجملَ.

التقطَ صادق كاميرا (كوداك) الفورية من بين مقتنيات أمي الأثيرة المصطفة في الدولاب المزجج الذي يضم أكوابَ الشاي وأقداحًا وأوانٍ نفيسة لا تخرج إلّا للخطار، ناولها إلى زوجته وطلب منها التقاط صورتين لنا أنا وهو، تساءلت في نفسي:

_لماذا صورتين؟!

لكنني لم أتوقف طويلاً عند تساؤلي ذاك، تركتُ نسختي بحوزة أمي، بينما دسَّ صادق نسختهُ في جيب سترته الداخلي، كانَ الفرقُ الوحيدُ بين الصورتين أني رمشتُ مع ومضة الكاميرا لالتقاط صورةٍ ثانيةٍ فظهرتُ مغمضَ العينين في نسخة صادق، ثم استأنفنا السهرةَ بكل ما فيها من حواديث ونكات وقصص عن الجبهة والمعركة، بينما تدور استكانات الشاي، وتحتشد سحبَ دخان سجائرنا تحت سقفُ الغرفة .

تغيرت ملامحُ صادق وغابت ضحكتهُ حين عرض المذياعُ اخبارَ المعارك التي تدورُ في شواطئ الملح جنوب شرق البصرة، مجَّ دخانَ سيكارته، وقالَ بنبرة أقربَ للتنهد :

_هذا البلدُ لم يعد صالحاً للعيش.

كانت نغمةُ الهجرة أو الهرب خارجَ البلاد تعلو كالنشاز وسط الأحاديث التي جمعتني بصادقٍ في الشهور التي سبقت حادثةَ اختفاءه قابلتها بالصمت كعادتي، لعلمي ببسالته في الدفاع عن وجهات النظر الطارئة التي تستجدُ على فكره بين فينةٍ وأخرى، الصمتُ الذي ندمتُ عليه لثلاثين سنةٍ بعد ذلك، كان عليّ أن أقاتلَ لقمع بادرة تلك الفكرة في عقل أخي المتعجل لتبنّي طوارئ الأفكار التي تلوحُ في سماءه، ربما كان عليَّ أن أحبسه أو أبرحه ضرباً كي أجتثَ فكرةَ هجرته خارج العراق، ولكن " قُل لو كنت أعلم الغيبَ"،

لا يجتمع الندم والإيمان في قلبٍ واحدٍ، لكن للقلوب كبوات .

مدارات العطر

آسيا

إنها حكايتي التي دأبتُ على قصها لنفسي كل ليلةٍ كيلا تقرض عثة النسيان أطرافها، ثلاثة عقود وأنا ألمّع تلك السردية وأنفضُ ما يعلق بها من غبار الايام ليلةً بعد أخرى .

منذ زمنٍ بعيدٍ وقبلَ أن تكتب الأقدارُ الفصلَ المظلمَ من قصتي، وقبل أن يغزلَ نولُ الحكايات حكاية ضياعي و كوابيسي التي لازمت لياليّ كشوكةٍ علقت في حشو وسادتي .

في مكان ما حيثُ النهرُ غيرُ بعيد . شارع ضيقٌ بجادةٍ واحدة وسط غابةٍ من أشجار السرو والصنوبر....

رجلٌ نحيلُ البنيان طويلُ القامة بشعرٍ كثيفٍ منسدلٍ يلمعُ بشقرةٍ غامقةٍ، تتدلى غرته على جبينه كل فينةٍ واخرى، فيرسلها بكفه إلى الخلف، بشرة بيضاء بحمرةٍ، وأنفٌطويلٌ وابتسامةٌ مبهجةٌ، وعينان بلون سماء تموز تحرسهما صفوفٌ كثيفةٌ من الأهداب السوداء.

لا تزال صورتهُ مرسومةً في مخيلتي، بسترته المطرية وسرواله الأسود، يستند إلى سيارةٍ من طرازٍ قديمٍ، وبين اصابع كفه الأيمن لفافة تبغٍ، إنه أبي صادق عز الدين العطار.

كان يحدثُ أمي عن بلادٍ تحترم قيمةَ الإنسان، عن وطنٍ لا يقدمُ أبناءه قرابينًا لإله نزواته، عن تعليمٍ مرموقٍ لهذه الطفلة مشيراً إليّ، ثم صمتَ لثانيتين ليردف :

فأما حياةٌ تسرُ الصديقَ وأما مماتٌ يغيظُ العدا

لم تجبهُ أمي، تركتهُ يسهبُ ويسهبُ في وصف مزايا البلاد التي تحدث عنها، وبعد صمت طويلٍ قالت:

_ إنها مخاطرةٌ كبيرةٌ

ثم عمّ الصمت .

كنتُ أدورُ حولهما كقمرٍ يعرفُ شمسهُ جيدًا فلا يقتربُ فيحرقهُالوهج، ولا يبتعدُ فيتوهَ بين المجرات، ألعبُ وأمرح في الحيز الذي يعبق بعطر أبي، وإذا ما ابتعدتُ عن مدار العطر، أعودُمسرعةً إليه ليعود لي أماني ما إن أتنشقَ عطرهُ من جديد ٍ

صوت الأوراق اليابسة تتكسر تحت قدمي ورائحةُ أشجار العفص الممتزجة برائحة طمي

النهـــر وخيـــوط الشـــمس المتســـللة مـــن بـــين اوراق الاشـــجار ترســـمُ صـــورةً دقيقـــةً لحالـــة الحـــب و الـــدفء التـــي كنـــت أعيشـــها آنـــذاك، أبٌ وأمٌ وعـــشٌ دافـــئٌ وعصـــفورٌ صـــغير يرفـــرفُ حـــولَ العـــش فـــي محاولة فتيةٍ لتعلم الطيران .

غابـــت الشـــمسُ فنـــادت علـــيَّ أمـــي ، ركبنـــا الســـيارة وعاد أبي بنا إلى البيت .

اســـتقبلتنا أجـــواء بيـــت العائلـــة بكـــل حـــب، المـــدفأةُ القديمـــةُ بلهبهـــا الازرق المُطـــل مـــن الكـــوة الزجاجيـــة الصـــغيرة فـــي بـــدن المـــدفأة الرمـــادي، رائحـــة مطـــبخ الجـــدة وعبـــق التوابـــل المتـــراكم عبـــر الســـنين ممتزجًـــا برائحـــة الخشـــب وعطـــر كفـــيّ جـــدتي الـــذي لا يشـــبههُ عطـــرٌ ولا يحاكيـــه شـــذىً، كـــان زيـــاد يلعـــب فـــي حضـــنها وهـــي الجالســـة علـــى اريكـــة المطـــبخ، رمقـــت الجـــدةُ أبـــي بنظرة يشوبها قلقٌ وقالت :

_ صادق ماذا بك ؟ لست على بعضك !

تجاهل سؤالها، ولما أعادته عليه أجاب :

_ ماذا تتوقعين من العائدين من الموت يا أمي؟

تنهـــدت الجـــدةُ وهـــي تلملـــم أطـــراف الغـــم الـــذي بـــدأ يزحـــف إلـــى فؤادهـــا، ثـــم نهضـــت مـــن اريكتهـــا واتجهـــت إلـــى المطـــبخ فتحـــت البـــرّاد، وبـــدأت باســـتخراج أطايـــب أصـــناف الطعـــام المُعـــدّ مســـبقًا لهـــذا اليـــوم، وبـــدأت بالتســـخين ليتعشـــى ولـــديها الـــذين أنهكهمـــا طعـــام الجـــيش، انضـــم لســـهرتنا عمـــو أمـــين الـــذي

صادفَ أنه في البيت تلك الليلة؛ لنمض معًا ليلةً عصيةً على النسيان .

يبرعُ أبناءُ هذه الأرض في خطف لحظات الفرح من بين عقود الحزن واختلاس فرجات النور من وسط دهاليز الظلام .

اختنق الشارع في تلك الأيام تحت وطأة الأخبار المسربة من الجبهة، أنباء عن قتلى وجرحى وأسرى ، ورغم ذلك سهرنا ليلتنا نضحك ونتبادل الطُرف، تناول أبي عوده وفي ثوانٍ قليلةٍ انقادت أوتار الصندوق الخشبي لريشته، وصدحت نغمات العود في أرجاء البيت .

دندنت أمي :

_تايبين و ما نمر مرة بدربكم ..حالفين ما نرد يوم على حبكم فاكتسى وجه جدتي بمسحة شجن.

وفي برهة قصيرةٍ غيّرَ أبي إيقاع المعزوفة إلى :

"راجعين يا هوا راجعين ... يا زهرة البساتين ."

تبسمت الجدة وتنفست بعمقٍ فطالما أحبت أغاني فيروز .

لا أدري ماذا حدث فيما بعد يبدو أنني نمت على الأريكة كعادتي فتحت عيني وإذا بأبي يضعني على فراشي .

آسيا

في الصباح التالي أيقظتني أمي وبدلتْ ثيابي على عجلٍ، استغربتْ فلم يكن من عادتنا أن نسافر صباح الجمعة، عدلت أمي هندامي، ومشطت شعري بعصبية، استكنت بين يديها ولم أنبس بكلمة حتى حين آلم المشط رأسي .

فرحتُ لما رأيت أبي ينتظرنا في المرآب، ومحرك السيارة يدور، ظننت في البدء أنه سيوصلنا إلى موقف السيارات، لكنه سافر معنا.

عند الباب وقفت جدتي تحاولُ جاهدةً أن تنتزع من أبي تبريرًا لقراره المفاجئ بمرافقتنا، راوغ في البدء ثم بعد إصرار جدتي قال لها :

_ مدعوّ عند أحد أصدقائي القدامى في القرية.

كان بإمكان جدتي أن تصدقَ زعمَ أبي، غير أنه تكلمَ كمن اختلق قصة الدعوة لتوه.

عمل أبي مدرسًا في قريةٍ وهناك عرف أمي ووقعا في حب بعضهما، ثم كان الزواج وكنتُ أنا ومن بعدي أخي زياد الذي يصغرني بعدة أعوام .

انطلقنا بالسيارة، أدار أبي مشغل الكاسيت، فأتى صوت ياس خضر :

_تايبين وما نمر مرة بدربكم .. حالفين وما نرد يوم على حبكم.

ضحكت حينها من المصادفة وحين كبرتُ أدركتُ أن لا وجود للمصادفات.

في القرية كنا نقطن كعائلةٍ في بيت صغيرٍ من طابقٍ واحدٍ بُنيَ في فناء المدرسة الخلفي مع بيتين آخرين يطابقانه تمامًا، عشنا

هناك كعائلة، وحين التحق أبي بخدمة الإحتياط في شتاء العام ١٩٨١ سكنت معنا معلمات أخريات، صرنا بعدها نلتقي أبي في بيت الجدة أوقات إجازته فقط، كان يوم جمعة، لا أحد سيمضي يوم عطلته في سكَنٍ على الحدود... ترجلنا أخيرًا بعد رحلةٍ دامت لثلاث ساعات بالسيارة، البيت برائحته المعهودة والأشبه برائحة الأقلام والدفاتر، الأثاث المنزلي البسيط المكون من أريكة خشبية تصرّ عند الجلوس والنهوض، تغطيها حشية اسفنجية فقدت كل خصائص الإسفنج منذ زمن، وبساط بلا لون يغطي بلاط غرفة المعيشة، في المطبخ كان هناك موقد غازي بشعلتين وطاولةٌ حديديةٌ وثلاجةٌ من طرازٍ قديمٍ، أما غرفتيّ النوم فقد خلتا إلّا من مراتبَ وأغطيةٍ ودولاب ثيابٍ.

مكثنا في صمتٍ يغلفه توتر أمي، كان أبي عاجزًا عن الإستقرار لدقيقةٍ كاملةٍ في مكانه، عند انتصاف النهار طُرق البابُ فهرعَ أبي ليجيبَ الطارقَ، مشيتُ خلفهُ متسللةً كقطةٍ، اختلستُ نظرةً من الشباك ،إنه (بهجت) صديقَ أبي، كان يعيشُ مع زوجته في كوخٍ طيني منعزلٍ في مقاطعةٍ نائيةٍ تابعةٍ لقضاءٍ قريبٍ حيث لا شيء سوى الرمل والسماء ودجاجات زوجته حليمة.

رجلٌ بقامةٍ قصيرةٍ ورأسٍ مفلطح وعينين جاحظتين وأنفٍ كبيرٍ مزكومٍ طيلةَ أيام السنة وحاجبين شديدي السواد تعلو وجهه مسحة حزن يشوبها شيء من النقمة .

سمعتهُ يقولُ لأبي إن الإنطلاقة ستكون من بيته قُبيل الفجر، ردّ عليه أبي بإيماءة من رأسه. مضى بعدها ، مشى خطوتين ثم التفت قائلًا:

_ ما خفّ حمله يا صديقي .

نام زياد بعد الظهر، كنت أراقب والديّ واتظاهرُ بكتابة الواجب، احتلتْ غيومُ التوتر سماء البيت، وبُعيد غروب الشمس ركبنا السيارةَ، وانطلقنا نقطع البراري، ضربَ الشتاءُ بكل قسوةٍ ذلك العام، أشجارٌ جُردت من أوراقها، ومساحات واسعة صبغها صقيع كانون بصبغةٍ رماديةٍ كئيبةٍ، بزغت نجمةٌ وأخرى وثالثة قبل أن نصل بيت بهجت .. ثم أثقلَ الليلُ ستاره على الصحراء، وأشعل أبي مصابيح السيارة ونحن لا نزال على الطريق، وحين تناثرت النجومُ في السماء كنا عند باب بهجت .

لم يكن بيتًا إنما غرفتان تصنعان معًا خطاً مستقيمًا بُنيتا من لبن وطين تسقفهما جذوع أشجارٍ وحصير من سعف النخيل، تتوسطان فناءً مترباً غير مسوّرٍ ، إلا من أطلال جدارٍ متهالكٍ عند الركن الشمالي للفناء .

كان بهجت يقف هناك بخفرٍ وقد إزداد عمق الأخاديد التي يحفرها حزنه المزمن على جبينه .

كانت تلك ليلة السابع والعشرين من كانون الأول ١٩٨٦، الأجواء داخل بيت الطين هادئة ودافئةً لا وجودَ لأثاث لاطاولاتٍ ولا كراسٍ إنه فقط صندوق صفيحٍ صدئ يضم ثيا بَ حليمة، تنضد فوقه لحفٌ وحشايا متهالكة، جدرانٌ طينية وفراشٌ صنع من أكياس الدقيق الفارغة، تنفست أمي الصعداء ما إن عبرنا عتبة غرفة الطين الكبيرة، استقبلتها زوجة بهجت بإبتسامة وتناولت زياد من بين ذراعيها على الفور... كان زياد يأسر قلوبَ الناس بوجهه الملائكي وعينيه الجميلتين .

التمعت عينا بهجت حين ناولهُ أبي حقيبة اليد التي حملها من البيت.

جلسنا جميعًا نتحلقُ حولَ المدفأة، وحينَ نامَ زياد أخيرًا قدمت حليمةُ العشاء من حساء دجاجٍ وخبزٍ .

كنتُ أهمُّ بغمس كسرة الخبز في مرقة الدجاج حين قالت حليمة:

_ ذبحتُ آخرَ دجاجتين اليوم، ولم يتبقَ سوى الديك العجوز.

التوت معدتي وتدفقت الكلماتُ مني دون أن أعي ما أقول :

_ هذا حساء دجاجتيك المسكينتين !

ثم خنقتني العبرةُ وبكيتُ على الدجاجتين التين وضعتا ثقتهما في حليمة لتنتهيا في قدر حساء.

امتنعتُ عن الطعام رغمَ محاولات الحضور لإقناعي أنهُما دجاجتان مجمدتان من السوق، لكني كنت قد فقدت شهيتي.

استفاقَ زياد بعد ذلك فألقمته حليمة رضّاعة حليب كانت قد أعدتها مسبقًا.

رضعَ الصغيرُ ونام على الفور، هجمَ النعاسُ على أبي وأمي بعد الشاي ...غريب! فقد كان من عادة أبي ألّا ينام حتى ينامَ الجميع.

انصرفَ كلٌ من بهجتْ وحليمة إلى الغرفة الثانية، أرّقني موضوع الدجاجتين، مشهد حليمة تحزُّ عنقي الدجاجتين السمينتين التين رأيتهما في ذات الفناء الخريف الماضي ظل يطاردني طوال الليل، تصورتُ دمَ الدجاجتين مسفوحًا على الأرض، وتساءلت كيف تخلصت حليمة من الريش ؟

تخيلتها تنتف الريش واحدة فأخرى فهمست لنفسي :

_ حليمةُ المتوحشة ..

صاح الديكُ العجوز الذي نجا من مجزرة الحساء معلنًا انتصاف الليل، قررت أن أعدّ الخراف لكن دون نفعٍ، هجر الكرى أجفاني، كانت مثانتي ترسل لي بإشارات حول ضرورة الإفراغ، وأنا أتجاهلها

_ما الذي سيخرجني في هذا الظلام؟

وماذا لو صادفني ذئب أو ابن آوى ؟

حاولت التملصَ من تلبية نداء الطبيعة، لكن لا فائدة . قررت الانتظار حتى يستيقظ زياد كما اعتادَ بعد منتصف كل ليلة، عندها سأطلب من ماما أن تصحبني إلى بيت الخلاء الذي يبعدُ عدة أمتار عن بيت الطين باتجاه الشمال، لكنَّ زياد لم يصحُ ومثانتي ألحت عليّ أكثر فأكثر، هززت أمي محاولةً إيقاظها.. ولا مجيب .

ماما تبدو كالمُخَدّرة.

يا إلهي عليّ أن أتصرف.

نهضتُ من الفراش مشيتُ أتحسسُ طريقي في العتمة كنت أرفرف بكفيّ لفرط حاجتي للإفراغ .. فتحتُ البابَ الخشبي الذي عبثتْ به أحوالُ الطقس على مدار السنين، تطلعتُ يُسرى ويُمنى، فلم أتبين طريقي، قررت أن أقعي على بعد خطوتين وأنهي الأمر، وعندها عبرتْ أنفي رائحة بنزين نفّاذة و صوتُ سائلٍ يُسكب.

تجمدت مكاني.. كانتْ الرائحةُ تزداد قُربًا، نظرت حولي فلم أقدر أن أرَ شيئًا، عبر من أمامي طيفان تهامسا فلم افهم ما قالاه، ثم دخلا الغرفةَ حيثُ عائلتي، كان أقصى ما فكرتُ فيه هو أن اللصوص اقتحموا منزلَ بهجت، وأن عليّ أن أتجمّد مكاني كيلا يشعروا بوجودي .

خرج الطيفان بعد دقائق، كنت مختبأة خلف كومة حطب هناك، كسرَ بكاءُ طفلٍ سكونَ الليل، أنه صوت أخي، لكنه جاءني من الفناء لا من الغرفة، فكرتُ أنّ اللصوصَ خطفوا زياد وسيبحثون عني ليأخذونني أنا الأخرى، كنت أرتجفُ مذعورةً حينَ بللَ ساقاي سائلٌ دافئ ...

_ يا إلهي! ماذا فعلت؟ أنا كبيرة على هذا!

وقبلَ أن أنتهيَ من معاتبة نفسي، لمعَ في ظلام الليل نورَ شمعة أو عودَ ثقابٍ لا أدري .. طارت شعلة اللهب واستقرت عند قاعدة الجدار الطيني للغرفة حيث ينامُ أهلي كمن تغرقهُ غيبوبةٌ، ثم تعالتْ السنةُ اللهب، هربت إلى زاوية بعيدة من الفناء مخافةَ أن تطالني ألسنة النار التي بدأت تلوك الجدران، اختبأت خلف الجدار الطيني هلعةً مما يجري، تساءلت في نفسي :

_هل هذا كابوس!؟

لمحت على سنا النيران بهجت وحليمة يستقلان سيارة أبي، كانت حليمةٌ تعمل بجد لإسكات زياد الباكي بين ذراعيها، حفظ عقلي المشهد دون أن

أحلّــل او أفهــم مــا يجــري، جمعــتُ قطــع الأحجيــة لأرتبها فيما بعد ...

وحــين ابتعــدت ســيارة أبــي بالســفاح وزوجتــه قــررت الهــربَ، ركضــتُ وركضــتُ بــلا هــدى، توقفــتُ بعــدَ دقــائقَ ونظــرتُ إلــى الحريــق كانــت النيــرانُ المضــطرمةُ توشــك أن تجهــز علــى البيــت، وتمتــد الــى كومــة الحطــب القريبــة، عندها جاء صوت أبي يستغيث :

_ نار..زياد..آسيا

ظــل ينــادي هكــذا لدقيقــةٍ أو أكثــر، كانــت النيــرانُ المســتعرةُ تعمــلُ بجــدٍ علــى التهــام الغــرفتين .. جفلــتُ حــين ســقط الســقفُ، فــأطلقَ أبــي بعــدها صــرخة اســتغاثةٍ أيقظــت كــل مخلوقــات الصــحراء، صــمت بعدها وإلى الأبد.

خطــر لــي أن بهجــت ســيعود ليحرقنــي أنــا أيضًــا، عــاودت الجــري لا أدري لكــم مــن الوقــت، وحينمــا امتــد ضــياء الفجــر فــي الآفــاق قــاهراً كبريــاء الظــلام خارتْ قواي وسقطتُ.. .

خمر وحرب

نيسان

ـ ماما، ما هاتان القارورتان هناك؟ وما السائل الكريه الرائحة الذي بداخلهما ؟

كنت في العاشرة حين سألت أمي ذاك السؤالَ ارتبكتْ وتعرقَ جبينها ومسدت خصلة تائهة من شعرها ثم قالتْ متلعثمةً :

_ إنه دواء بابا، حذار أن تقتربي منهُ إنه سيءٌ للصغار.

لم أعدْ لسؤال أمي عن الشراب الحليبي اللون كريه الرائحة، ثمةَ أشياءٌ لا تحتاجُ إلى الشرح، نحدس من رغبة الآخرينَ في إخفاءها إنها غير مقبولة وأنها أمرٌ معيبٌ...مضتْ سنواتُ الطفولة والقارورتين في ذات المكان تمتلئان كلما نفذ الدواءُ العجيبُ منهما، كنتُ أشمّ رائحة ذاك السائل في أنفاس أبي في مساءات العطل حينما يعود للبيت هادئًا و وادعاً كطفلٍ مطيعٍ، لم تقف كؤوسُ الشراب ولا قواريره أمام سعادتنا كعائلةٍ متكونةٍ من أمٍ وأبٍ و ولدين وبنتٍ، صفاء الأخ الأكبر، وأنا الأخت الوسطى وآخر العنقود علاء .

صفاء بروحه الشفافة وميله للعزلة ورثتيه الضعيفتين اللتين دأبتا على خذلانه في مواقفَ عدة، ومضخة (السالبيوتامول) التي ترافقه أينما حلّ، وأنا البنت الجادّة، وعلاء الحكيمُ المتعقلُ ذو الفكر السابق لعمره، وأم خانعةٌ دأبها طاعة زوج تنقادُ له وتبجلهُ كرَبّ لا كزوج .

كبرنا بهدوءٍ وكل شيء على ما يرام حتى اندلعت الحرب، واستُدعيَ صفاء للجندية الإلزامية، حاولَ أبي جاهداً أن يستحصل على أمر إعفاءه من الخدمة العسكرية، كونه وُلد

برئتين مُعتلتين وقد يختنق في أية لحظة، تكللت مساعي أبي بالفشل وكان على صفاء أن يلتحق برفاقه في الجبهة في مرتفعات شمال شرق البلاد، بعد أسابيع غادر صفاء إلى الجبهة وسط دموعي ونشيج أمي وتجلّد علاء ووجوم أبي، كان ذلك في شتاء عام ١٩٨٢.

كان صفاء هزيلاً بوجنتين محمرتين، وشعرٍ جميلٍ منسدلٍ وبُنيةٍ تجعله يبدو كمراهق لا كرجل، وُلد صفاء بتركيبةٍ بشريةٍ قلّ نظيرها لا يمكنك إلّا أن تحبه، طيبٌ وعطوفٌ وجميلٌ ولا يرى إلا جمالاً، لم أره يوماً يتذمر أو يتصرف بغلٍ أو نقمةٍ ، كان أشبه بفراشةٍ دخلت بيتنا ذات ربيعَ ورفرفرت بجناحيها ناثرةً غباراً سحرياً أسر قلوبنا إلى الأبد.

بعد إسبوعين من سفر صفاء تلقينا اتصالًا من صديقٍ يفيد أن صفاء يرقد في مستشفى السليمانية العسكري يعاني التهاباً رئويًا حادًا، هرعَ والداي لموافاة صفاء الراقد في المشفى وحيداً من أهله وأحبته، وبعد أقل من أربع وعشرين ساعة عاد الثلاثة أمي وأبي وصفاء...لكن الفرق أن صفاء عاد محمولًا في صندوقٍ خشبي يكسوه العلم العراقي.

قال رفاقُ السلاح أن صفاء ورفاقه كانوا يتموضعون في خندق على سفح احد المرتفعات حين جادت السماء بالمطر، فتدفقت المياه إلى الموضع حتى وصلت مستوى الحزام، أمضى الجنود المساكين ساعات عصيبة في تلك الحُفرة وسط المياه المتجلدة في ظروف لا يمكن وصفها، وحين توقفت المعركةُ كانت رئتا أخي قد استسلمتا لضعفهما، فنُقل على عجلٍ إلى المشفى ليتم اسعافه، وبعد ثمانٍ وأربعين ساعةً من محاولات إنعاش رئتيه وأنفاسه المتعبة قرر صفاء أن لا شيء يدعو للبقاء وأن الأرضَ

لم توجد لأمثاله فحزمَ أحلامه المعلقةَ ومضى إلى عالمٍ لا ظُلم فيه .

تعاونت الحربُ مع البرد والخوف على رئتي أخي العليلتين لتجهز على سنينه العشرين بكل بساطة.

مات صفاء رحلَ عن عالمنا كنسمةٍ مرتْ بنا وداعبت وجناتنا وحركت ستائرَ البيت وخرجت بهدوء، لينتهى الزمن الذي كنتُ ألتفت فيه إلى أخي لتقابلني ابتسامته .

هكذا جاءتْ الحربُ لتحدث صدعًا كبيرًا في بيتنا، وتغير خارطة طريقنا إلى الأبد.

كان الشارعُ غير معتادٍ بعدُ على تناقل اخبار قطف أعمار الشبيبة، اهتزت المدينةُ بجانبيها حين ذاعَ خبرُ رحيل صفاء، الشاب الخلوق الهادئ الذي لم يدعسْ على نملة طيلة فترة مكوثه على الأرض.

مرت أيام العزاء من حزنٍ إلى ذكرى أليمةٍ إلى حزنٍ آخر. الحزن الذي تمنيتُ لو أنه دام إلى الأبد، كان حزني على صفاء نبيلًا كروحه يخزّ قلبي دون أن يطعنه ، يطرق أبواب روحي قبل أن يقتحمها، علمني حزني على رحيل أخي أن الحياةَ تمنحُ الحزنَ لأبنائها البررة.

انتهى العزاء وقارورتا الخمر على حالهما لم ينقصْ منهما ولو رشفةً واحدةً، وفي الليلة الأولى بعد انتهاء العزاء ومغادرة المعزين، أفقت قُبيل الفجر على صوت أبي وهو يكاد يختنقُ بقيئه، أسعفته أمي وساعدهُ علاء على تبديل ثيابه بينما تكفلتُ بتنظيف المكان، التمسنا له ألفَ عذر فلم نشهر أصابع التنديد بفعله حتى في حواراتنا مع أنفسنا، تكرر الأمر ثم عاد ليتكرر ليلةً بعد ليلةٍ، حتى تلاشتْ مشاعر التعاطف

وتعالت أصوات القرع واللوم، كنا نتصدى للإنهيار الوشيك للعائلة كمن يواجه إعصارًا بمظلة...

مرت الأيامُ والأسابيعُ وأبي يثملُ ويعربدُ كل ليلةٍ، وحين اعترض الجيران على وقوفه عاريًا أمام البيت والصراخ بأقذع الشتائم بحق كل من يخطر بباله ساعة سكره، صار يسكرُ خارجَ المنزل كل ليلةٍ ليعودَ مترنحًا يرتدُ جسده الخائر تحت سطوة العرق من هذا الجدار ليرتطم بذاك، اضطرت أمي أن تسايرهُ ليبقى في البيت أملًا في أن تحتضن جدران المنزل وسقفه فضيحة الأستاذ السكير.

صارت أمي تعد له أطباق الطعام والثلج كل ليلة خميس بعد أن تمكن بعض أصدقاءه من إقناعه يجعل السكر ليلة واحدة في الأسبوع.

هكذا تمددت قارورتا الخمر المخبأتين في الخزانة لتفسدا سعادةَ أسرتنا.

زُمزمت حكايتنا بعدَ أشهرٍ طويلةٍ من الإفتضاح، صار كل من في جانب المدينة الغربي يعلمُ أنّ الأستاذ عبد الحميد مدير إحدى المدارس في المدينة سكير عربيد، صار يعرف بين تلاميذه بعبد الحميد السكران، الناس في البدء أشفقوا عليه لما صار إليه حالهُ بعد رحيل ولده المجحف، لكنّ الجماهير لم تستمر في منحه المزيد من المبررات حينما تمادى في غيّه، سرعانَ ما لم تعد قصة وفاة صفاء تُقرن بمعاقرة أبي للخمر، صار الناسُ ينظرون إلى أبي نظرة تقززٍ واحتقار فقد محت عجلةُ الأيام من ذاكرتهم العذرَ الذي طالما التمسوه له.

منذ ذلك الحين عاشَ ابي بهويتين ووجهين، الوجه الأول: المدير الناجح والجارُ النبيلُ والصديقُ الوفيُ والرجلُ الخلوقُ،

الذي لا يعرف للسلوك الشائن طريقًا، عاش أبي بهذا الوجه من السبت حتى ليلة الخميس ليتحررَ من الصورة النمطية للرجل المستقيم عندما ينتصف الليل وتنتصب زجاجاتُ الخمر وأطباقُ الوجبات الخفيفة على الطاولة الوسطية في غرفة الضيوف، ومع ازدياد عدد الأقداح التي يردُّها أبي في جوفه تتراجع الهيبة وينحسر دور الرجل المسالم في المسرحية ليعتلي الوحشَ القاتم خشبة المسرح، فيعلو صراخه بالسباب والشتائم، وتعلو معه استغاثة أمي التي تطلب منه التوقف عن إبراحاها ضربًا ليستمر العرضُ على مسمع كل أهالي الحي وسط هدأة الليل حتى يطلع الفجر فيعلن بزوغ الضياء نهايةَ العرض الأسبوعي المنطلق من بيت حميد السكران.

تبدأ الأحداث حين يشرع بنعت من حوله بعبارة "ابن الكلب"، ثم يتدهورُ وعيه بوتيرةٍ مفزعة ليصير الوضع إلى كؤوسٍ مهشمةٍ واوانٍ مبعثرةٍ، كدماتٍ وخدوشٍ وجروحٍ على وجه أمي وذراعيها، وقيءٍ في كل مكان، ثم ينامُ فجرَ الجمعة ليفيق ساعةَ العصر بصداعٍ مريعٍ وقد غادر الخمرُ رأسه، فيبدأ بالانتحاب عند قدمي أمي مستجديًا عفوها، معللًا سلوكه معها بأنه لم يكن في وعيه، وفي مناسبات عدة كان يعدها أنه لن يسكر ثانية، وقد يُمعن في أداءه فيعمدُ إلى سكب ما تبقى من خمر الليلة الماضية في أقرب فتحة للصرف، وفي الخميس الذي يليه يجهزُ مؤونة جديدة، تكرر الأمر حتى حفظنا سيناريو ليلة الخميس ونهار الجمعة عن ظهر قلبٍ.

كنتُ حزينة على أمي المستكينة تحت سطوته، كمن لا يملك خيارًا آخر، كنت أغفر لأبي في لحظات تواطؤٍ خسيسٍ، كرهتُ ضعفي كلما رأيت الكدمات والخدوش الجديدة على وجهه أمي

وذراعيها، كنتُ أعاهدُ نفسي أني سأنجدها في الخميس القادم، ثم يأتي خميسٌ جديد وآخر وآخر وأنا مستسلمة لجُبني وخستي، أخدر ضميري المحتجَ على صمتي بمحاسن أبي وحنانه عليّ وحبه لي .

أقصتني أمي من المشهد إذ كانت تطردني إلى غرفتي قبل أن يبدأ العربيد بطقوسه، إلا إن صوت استنجادها والكدمات الجديدة التي تُرى صباح الجمعة، كانت كافيةً لإثبات أنها لا تزال تحت رحمته.

ليلةُ الجديلة، نيسان

كانت ليلة رأس السنة، العام ١٩٨٦ يلفظ آخر أنفاسه والعام الجديد يتقدمُ بكل عنفوانٍ، انتصف الليل، تبادلنا التهاني والأمنيات، صعدتُ بعدها إلى غرفتي، وبعد دقائق قليلةٍ صدحَ صوت الموسيقى الصاخب من الطابق السفلي، ثم صوت آنيةٍ زجاجيةٍ تتهشمُ مصحوبًا بصوت صرخةٍ مكتومةٍ، ثم أنين مخنوق كان الظلامُ شديدًا والكهرباءُ مقطوعة، سكون ليل الشتاء سمح للصوت بالسفر بدون أي قيد، استعنت بضياء شمعةٍ وغادرت غرفتي، هبطت السلالم بحذر حتى علا صراخُ أمي باستغاثةٍ مفجعةٍ، فقفزت ما تبقى من السلالم قفزاً ..

كانت غرفة الاستقبال مضاءةً، ظلالُ قوارير أبي ذات الأعناق الطويلة تستلقي على الجدران بدلال

مضـــفيةً علـــى المكـــان اجـــواءً مخيفـــةً، لا زالـــت أمـــي تســـتغيث، كـــان يضـــربها بهـــراوةٍ، انـــدفعتُ دون وعـــي لأوقفـــهُ وحـــين وصـــلته التفـــت إلـــيّ وأطلـــقَ التعويـــذةَ التي اعتادَ لعننا بها ساعات سكره :

_ بنت الكلب !!

ازاحنـــي بقـــوةٍ حتـــى ســـقطتُ أرضًـــا... كنـــت لا أزال أحمـــل بعضًـــا مـــن عشـــمٍ، وأتأمّـــلُ أن يلتفـــت إلـــيّ ويقول :

_نيسانتي!

لكنّ شيطانَ الخمر قد عاث في عقله فسادًا .

نهضـــتُ مـــن ســـقطتي ووقفـــتُ بوجهـــه متحديـــة، فأنهـــال علـــيّ ضـــربًا بـــالهراوة ذاتهـــا، ثـــم تنـــاول ســـكّينًا كانـــت مرميَّـــا هنـــاك علـــى طاولـــةٍ جانبيـــةٍ، خلتـــه بـــدءًا ســـيطعنني؛ لكنـــه تنـــاول طـــرف جـــديلتي التـــي كانـــت تتـــدلى بعيـــدًا تحـــت حزامي،جـــذبها بعنـــفٍ ثـــم رفـــعّ ســـكينه وأخـــذ يحزهـــا، كانـــت أمـــي تتحســـس جراحهـــا و لـــم تحـــرك ســـاكنًا ولـــم تنطـــق ولـــو بآهـــة تحســـرٍ علـــى عظـــامي التـــي تكســـرت تحـــت وطـــأة هراوتـــه أو جـــديلتي التـــي إغتالهـــا، أدركـــت أننـــا نتشـــابه فـــي جبننـــا، فقـــد اســـتغرقت أعوامًـــا لأُنجـــدها مـــن قبضـــته وهـــاهي ذي تعتصـــم بالصـــمت بينمـــا يغتـــال أبـــي مـــا تبقـــى لـــه مـــن أبوةٍ في قلبي.

لـــم تجُـــد عينـــاي بالـــدمع مـــن هـــول المفاجـــأة صـــعدت إلـــى غرفتـــي أتلمـــس طريقـــي فـــي الظـــلام وأغلقـــتُ بـــابي علـــيّ، نـــامَ إلـــه الخمـــر فـــي معبـــده تلـــك الليلـــة وجُـــنّ

جنونه حينَ أفاق ليجدَ جديلتي ملقاةً على أرضية غرفة الضيوف كجثةٍ بلا هويةٍ، مكث بعدها يبكي ويلتمس عفوي عند باب الغرفة لساعاتٍ، حبست نفسي في غرفتي أيامًا، أقسمتُ تلك الليلة إنّ شعري لن يطول بعد اليوم ليغطي شحمة أذني...

هكذا صرتُ أُعرف بالفتاة ذات الشعر القصير بعدما كنت الفتاة ذات الجديلة .

انقطعتْ وشائج الود بيني وبينه وصرت أسميه سيادة المدير، إله الخمر، باخوس، في غيابه طبعًا إذ لم يدُر أيَّ حوارٍ بيننا منذ حادثة ليلة رأس السنة وجزّ الجديلة.

معركةُ شرق البصرة

أمين عز الدين

أواخر كانون الأول ١٩٨٦

مستشفى البصرة العسكري

لا أحدَ ينامُ في البصرة، أصواتُ إنفجاراتٍ وقذائف صاروخية تأتي من الطرف المشتعل لعروس الخليج (ثغر العراق الباسم)، لم تكن باسمةً في تلك الأيام، كانت ثغرًا داميًا وجرحًا نازفًا كانت أيَّ شيءٍ إلّا البسمة.

أنينُ الجرحى المتسرب من المهاجع إلى ممرات المستشفى، همهماتُ الكادر الطبي والتمريضي تتخللهُ نداءاتُ استغاثةٍ، وصرخاتُ توَجّعٍ من هنا وهناك، وصياح أمهات فُجعن بفلذات أكبداهن تأتي من الطابق السفلي حيث ثلاجة الموتى ...

وسطَ تلك السيمفونية اللآمتناغمة كانت إذاعة المشفى تبثُّ أغانٍ وطنيةٍ وأناشيد حربٍ، لكي تبقى الروحُ عالية، كان على أرواحنا المنسحقة أن تبقى شامخة، وألا تفقد ايمانها بحتمية ومصيرية المعركة! رغم أننا كنا كأغصانٍ هصرتها العاصفة، وتركتها تتدلى من جذع الشجرة الأم دونما اثرٍ من حياة!

نفيرُ الإسعاف العسكري أشعلَ الإحساس بالخفر والترقب في نفوس كل من في المشفى، الكوادرُ الطبيةُ والتمريضيةُ والزوارُ ومرافقو المرضى اشرأبوا بأعناقهم وصاروا يسترقونَ النظرَ من الشبابيك والشُرُفات إلى فناء المستشفى؛ ليروا الوجهَ الأبشعَ للحرب .

همستْ عجوزٌ تزين الوشوم الفيروزية ذقنها وشفتها السفلى :

_ (جابوا ولد الخائبات)

أخبارٌ عن معركةٍ طاحنةٍ تجري بوتيرةٍ مرعبةٍ، الكلُ ينتظرُ بترقبٍ بدء عملياتُ إخلاء الجرحى، صرير عجلات النقالات لا يهدأ... الحربُ هنا كالحرب في الخطوط الأمامية.. كنا نقارعُ الموتَ ونجهدُ لإستبقاء أنفسٍ تعتزمُ الرحيلَ، وجوهٍ مهشمةٍ و أطرافٍ معقّرةٍ ودماءٍ مسفوحةٍ، هذا هو وجهُ الحرب الآخر، القتال في مشفى عسكري معركةٌ ضدَ الموت، كنا نتشبث بأذيال أرواح عازمة على الرحيل نتوسلها للبقاء.

وصلت إشارة تقولُ إنّ المستشفى الميداني الأقرب لساحة المعركة بحاجة إلى كادر إضافي، لبينا النداء من فورنا وتوجهنا الى هناك فريقٌ طبيٌ متكون من جرّاحٍ وطبيبٍ تحت التدريب و ممرضين .

الوضعُ في الجبهة مزرٍ، قتلى وجرحى وجثثٌ مطموسةٌ المعالم، أجسادٍ فقدتْ أطرافها، وأطرافٌ فقدت أجسادها، رائحة البارود الممزوج بالتراب المُخضّب بالدم كانت المزية الأكثر طغيانًا على المشهد هناك .

كنتُ أسعف جريحاً بحالة حرجة، قال معاون الطبيب :

_لا إصاباتٍ خارجيةٍ ،النبضُ ضعيفُ، الضغط لا يمكن تحديده، نزفٌ داخليٌ على الأغلب.

علا دويٌ مرعب اهتزت له الأرضُ تحت أقدامنا وامتزجت ثورةُ الغبار مع سَورة الدخان، انعدمتْ الرؤيةُ لدقائق..ثم سَرَتْ في المكان جلبةٌ أعرفها .. إنها حمى ما قبل الموت..قصفٌ صاروخي استهدفَ المكان..اخطأه هذه المرةَ لكنه سيعود بعد قليلٍ.. لكنّ أحدًا لم يتخذْ أية إجراءاتٍ وقائيةٍ، عدنا نستكمل ما كنا قد بدأناه وكأنّ أرواحنا لا تعنينا. كنتُ أفحصُ جنديًا بشعر

أصهب وسطَ أنين عشرات الجرحى حينما أصمّ أذنيّ صفيرٌ مرعبٌ؛ قذفتني بعد ذلك قوة أجهلها إلى مسافة بضعة أمتار، ارتطم جسدي بالأرض فغبتُ عن الوعي، مضى بعض الوقت وأنا مغيبٌ بين أوجاع اليقظة وغياهب الإغماء.

حين استعدتُ وعيي كنتُ ملقىً على الأرض بين الركام المكسو بالدم وغبار المعركة، ساقي تنزفُ بغزارة حتى أني أسمع لغَط الدم المتدفق منها، أنفاسي تتقطع وكأنّ فقاعةً تكبرُ في صدري وتكبر لتتركني عاجزًا عن الإتيان ولو بشهيقٍ واحدٍ يصلُ حتى قعرَ رئتيّ ليرو ضمأي للهواء .

كانت الرؤية تنحسرُ والموجوداتُ من حولي تختفي واحدةً تلو الأخرى، تثاقل جفناي كستارتين بللهما رشقُ المطر، ازداد لهاثي ونفدَ الهواء من صدري ، أغمضت عينيّ، فشعرت، أني أسقط في غيمةٍ من بخارٍ، أو أغرقُ في بحرٍ من نورٍ، أهو الوسن أم أنني أُحتضر؟ لا أدري ما الذي جرى بعد ذلك أظن أنني غادرت هذا العالم ِلبعض الوقت ؟

أراني أمشي في فلاةٍ وصادق أخي يمشي جنبي، أفلتَ صادق كفي بغتةً، ومشى صوبَ الشمس الغاربة ثم اختفى، ركضتُ هنا وهناك بحثًا عنه ،أركض وأنادي :

_صادق..صادق

فيرتد إليّ الصدى، بصوتٍ مريعٍ يشبهُ نعيبَ بوم ينادي من خلفي صادق صادق.

من بعيد ظهرت صبيةٌ تركضُ وتتعثرُ فتكبو على وجهها ،صحتُ بها :

_الله .. الله

انتبهتْ إليّ، كان وجهها يغطيه السُخام، فرّت هاربةً نحو الشرق، استأنفتُ مسيري ثم وقفتُ على اطلال كوخٍ محترقٍ، وعقابٍ مُلقى على جنب وقد غابت روحهُ واحترقَ ريشُ جناحيه.. وعلى بعد خطوتين أو أكثرَ كان ثمة عقاب يحجل على قائمةٍ واحدةٍ والدمعُ يهضلُ من عينيه حُزنًا على احتراق العشّ ورحيل صديقه المأساوي، وما أن تنبهَ الطائرُ إلى وجودي حتى صفّق بجناحيه وطار دون اتزانٍ أولًا، أفلح بعدها بالتحليق عاليًا..

ألمٌ شديدٌ أيقظني، ساقي تؤلمني، سأموتُ حتمًا، أسناني تصطك، أنني ارتجف، كان البردُ شديدًا ، جسدي يرتفعُ وينخفض وألمي يشتد ضراوةً، كنتُ محمولًا على كتف أحدهم..يركض بي ويصيح :

_ جريحٌ ..جريح

فتحت عينيّ كنا في أرضٍ خاويةٍ رائحةُ المعركة لا تزالُ تزكم أنفي، عربةٌ عسكريةٌ تقفُ غيرَ بعيدٍ ينادي مسعفي طالبًا النجدة ...

لا تزال الرؤية مشوشة وجوهٌ كثيرة تتحرك حولي، أصواتٌ وهمهماتٌ تتحدث عن نبضٍ مستقرٍ وأنبوبٍ صدري يعملُ، لامس جسمٌ باردٌ صدري العاري، قال أحدهم :

_ دخولُ الهواء للرئيتين جيدٌ.

دهمَ الإعياءُ جفنيّ من جديدٍ فأسدلتهما لأغرقَ في غيابة اللاّوعي تتلاطمني أمواجُ الكوابيس ...

العقابُ المحترقُ وفتاةُ السخام من جديدٍ..العقابُ الأعرجُ يحومُ في سمائي ثم يقتربُ ليهبطَ على كتفي، كطائرٍ مدجنٍ ..

فتحتُ عينيّ من جديدٍ، رائحة مطهراتٍ ودمٍ محترقٍ تصيبني بالغثيان، إضاءةٌ ساطعةٌ تؤلمُ عينيّ .

أرى وجهًا مألوفًا يقتربُ و يمسحُ جبيني بكفه ويقول :

_الحمدُ لله على السلامة يا بطل .

إنه الضابط الذي حملني على كتفه بعدما أصبت .

يقترب آخر، يلمس كفي ثم يندفع في ذراعي سائلٌ باردٌ اشعرُ بحرقةٍ طفيفةٍ تسري في وريدي ..

_إنني نعسان.

أعود بكوابيسي إلى الصحراء وفتاة السخام ورُفاة العقاب المحترق..العقابُ الأعرج غائبٌ هذه المرة

الظلامُ دامسٌ، وفتاةُ السخام تختلسُ النظر من خلف حائطٍ متهالكٍ..النارُ تضطرمُ..وصفيق جناحي العقاب يعلو على صوت اضطرام النار وطقطقة الرماد، أقف على جنب وأقول:

_إنه ميتٌ . ميتٌ بالفعل

ثم يطلع الصباح .. فأسمع أصواتَ أسراب الإوز البري المهاجر، أسراب الإوز التي حدثتنا عنها أمي في صغرنا..لا أدري أكانت الإوزاتُ مغادرةً أم عائدةً ...؟

صوت انفجار يعقبهُ رشقاتُ رصاصٍ..قنبلة يدوية سقطت على بعد ياردتين..انبطحت على الأرض...نظرتُ حولي لا أثر للعش المحترق ولا لفتاة السخام .

العقاب الأعرج وحده يحلق في سمائي .

فتحتُ عينيّ :

_اين انا ؟

_في بغداد ، مستشفى الرشيد العسكري .

_صادق ... أين أخي، أرسل في طلبه أرجوك.

زرقَ الرجلُ حقنةً في سائلي الوريدي ومضى، وبعد قليل ظهر زميل لي، اقترب من رأس سريري وقال:

_ الحمد لله على السلامة دكتور .

_شكرًا، سلمك اللهُ ،ماذا حدث ؟

_ لقد تمَّ إخلاؤك من أرض المعركة إلى مشفى في شمال البصرة، وهناك تمتْ السيطرةُ على النزف، كلّ ما استطاعوا فعله هو اسعاف إصابة صدرك وربطُ الجرح في ساقك بإحكامٍ لإيقاف النزف لإنقاذ حياتك.

كنت تعاني كسرًا مضاعفًا في عظم الفخذ وتهتكًا شديدًا في الانسجة الرخوة .. للأسف تأخرَ نقلك إلى مشفانا، وصلتنا في حالة صدمة ...

قطعت الممرضة حديثنا:

_حالة طارئة سيادة النقيب ...

اسرع النقيب الطبيب لمعاينة الحالة طارئة قبل أن يكمل حديثه.

قطارُ الليل إلى بغداد

أواخر العام ١٩٨٦

شحبتْ أجواءُ البيت وغادرهُ البريقُ بعدَ أن سافرَ صادقُ برفقة عائلته الصغيرة، البيوتُ التي ينتابها الصمتُ بعدَ سنواتٍ طويلةٍ من الضجيج الدافئ تغشاها عتمةٌ شاحبةٌ كتلكَ التي على وجوه الأموات، لا شيءَ يؤلمُ الروحَ كالكراسي الفارغة والسكون الذي يعتري المنازلَ الطاعنةَ في الذكرى بعد سنواتٍ طويلةٍ من صخب الصغار .

هذه سنةُ الحياة، يكبرُ العصفورُ الصغيرُ فيتعلمَ الطيرانَ، وبعد أول دورة موفقةٍ يدورها حولَ الشجرة الأم، يحلق باحثًا عن عشٍ جديدٍ، الصغارُ لا يمكثون إلى الأبد على أفنان شجرة المهد .

شاغلتُ نفسي بترتيب البيت، وتنضيد كتب أمينٍ على رفوف المكتبة، وليّ عندَ كلّ كتاب وكل تذكار وكلّ زاوية قصة، هنا عندَ حافة الشباك جُرح جبينُ صادق ذات صباح، تدفقَ الدمُ يومها بغزارةٍ، كان أمينٌ في السابعة من عمره فبكى بحرقةٍ وانتحبَ قائلًا :

_ أمي أسرعي، أوقفي النزف لا أريدُ أن يموت أخي .

غادرتُ المطبخ إلى غرفة المعيشة، أتطلع إلى الكؤوس وشهادات التقدير والتفوّق المصطفة على رف المنجزات كما يسميه أمين، كؤوسٌ وميدالياتٌ حصدها أمينٌ من تفوقه في المدرسة و في ألعاب الساحة والميدان، وشهادات تقديرٍ له ولصادق حصلا عليها خلال رحلتهما الدراسية والعملية، ثم صورة جمعتهما ليلةَ الأمس لا تزالُ على الطاولة.

رنّ الهاتفُ فغادرتُ رغمًا عني طقسَ الذكريات الذي أعيشه كلما بقيتُ وحدي بعدما يغادر الجميع رفعت السماعة ..

_الو ....

_منزل الضابط أمين عز الدين ؟

_نعم، تفضل .

_سيادةُ الضابط مصابٌ وهو الآن راقدٌ في مستشفى الرشيد العسكري في بغداد .

شهقتُ من المفاجأة، وتملكني الخوفُ.

_ماذا به ؟ أرجوك أخبرني هل حالته خطرةٌ ؟

_ لا أعلم بالضبط.

_حسنًا .. حسنًا، سأكون على أول قطار يغادر إلى بغداد.

غالبتُ دموعي، لن أسمح لدمعةٍ واحدةٍ أن تنزلقَ هاربةً من بين أجفاني أو أن تحلمَ بالجريان على خدي،منعني قلقي على أمين من البكاء :

_ لن أبك، سيكون فألًا سيئًا .

خرجتُ من بيتنا وحيدةً أحملُ حقيبةَ يدٍ صغيرةٍ لا غير، أخذتُ أول سيارة أجرةٍ لتقلني إلى محطة قطار الموصل، مررتُ في طريقي للمحطة من أمام بيت خالتي، البيت الذي استقبلني عروسًا لعزالدين، قبل أقل من أربعينَ خريف، دارَ بنا دولاب العمر، و مرت السنين على غفلة منا، متى كان كلُ هذا؟ متى كبُر الاولاد وكبر همهم معهم؟ ومتى شاختْ أرواحنا؟ من كان يصدق أن هذا سيحصل، أن يرحل عزالدين باكرًا؛ لأنهض وحيدةً بحمل تربية الولدين، أن أكون لهما الأب والأم ...أكملت العجلة مسيرها حتى توقفتْ عند الرصيف المحاذي للمحطة، إنها المرةُ الأولى التي تطأُ فيها قدماي أرضُ المحطة.

من أين أدخل؟
ومن أين أقطع التذكرةَ؟
قررت أن أُساير تيار الحشود، فأذهبُ حيثما يذهبون، دلّني سيل الجماهيرُ المطحونةُ بين حجري الرحى إلى الشباك حيثُ قطعتُ تذكرتي، ثم إلى الرصيف الذي سينطلق منه قطاري فيما بعد، وقفتُ بين الناس في تلك الليلة الكانونية القارصة أُسائل نفسي:
_ وماذا بعد؟
ما الذي ستأتي به الأيامُ؟
وفي أيّ اتجاه ستدورُ عقاربُ الساعة؟
وإلى أي حالٍ سيؤول أمر هذا الشعبُ؟
هل سندفعُ كُلُنا ضريبةَ ما يحدث؟
هل سنُورثُ الحربَ ولعنتها للأجيال القادمة؟
الصغار الذين خبروا سيرة الموت وحفظوا أناشيد الدم وتكدّس جثامين الرجال فوق بعضها البعض؟ ما الذي سيحملونهُ معهم من متاع الطفولة حين يكبرون؟
بمَ سيخبرون أبناءهم ؟
وأيّة قصصٍ سيروون للأجيال التي لم تولد بعد؟
هل ستحكي الأم لإبنها قصة الجندي الذي ماتَ وحيدًا في أرضٍ لا يعرفها؟
أم قصةَ الجندي المجهول الذي لا يُعرف لقبره مكانٌ ؟ أم حكاية الأمهات الثكالى اللواتي أعلنّ الحزن أبدًا حتى يحين اللقاء.....
تشتتْ أفكاري كدخانٍ في سماء صافيةٍ، صارَ حشدُ المنتظرين يكبرُ ويكبرُ، وقف فنانٌ يحمل عودًا يغمده في جراب من

قماشٍ أسود، وطالبٍ جامعي يمشي حذوَ زميلته يحمل عنها كتبها والحقيبةَ في محاولةٍ منه لإقناعها بأنه جديرٌ بحمايتها، جنديٌ ببزةٍ عسكريةٍ غير مهندمةٍ تخضبها الدماء من مواضع عدةٍ، رأسه معصوب بضمادةٍ مُدماةٍ و وجهٍ شاحبٍ، لابد أنه جريحُ حربٍ .

الحربُ والحبُ والموسيقى ... اجتمعوا في مشهد لا يتكرر كثيرًا، الفنُ والحبُ لا تقتلهما لعنةُ الحرب يورقان في حقل البارود، ويزهران تحت أزيز الرصاص .

جراح الحرب لا تُشفى، لا أحد يخرج من ساحة الوغى سالمًا، الحرب تغتالُ البهجة في نفوس الناجينَ قبل أن تحصدٍ أرواحَ الضحايا، الخارجون من ساحة المعركة لن يعودوا كما كانوا قبل ساعة الصفر، الحرب تغتال أحلامنا وتدمغُ جباهنا بسيماء الأسى، وحينَ يتوقف إطلاقُ النار ويتصافح القادة ويخربشوا بأقلامهم الأنيقة على ذيول معاهدات سلامٍ جديدة، لن نكون كما نحن، سنكملُ ما بدأناه قبل سقوط أول صاروخ كيفما كان، لكنَّ الروحَ الحالمةَ ستكون قد غادرتنا عند إنغراس أول شظية في قلب أول شهيد .

اقترب القطار معلنًا عن وصوله بنفيرٍ عالٍ أسمَعَ كلَّ من على الضفة الغربية للنهر، صريفُ عجلاته تلتحم بقضبان السكة الحديدية، لتنعتقَ من سطوتها مرة تلو مرة، متزامنًا مع زئير ماكنة القطار الساخطة، يذكرني برحلتنا على هذه الأرض، تعصرنا الأيام فنلتحم معها في صراع البقاء أو الفناء، وحين نوقنُ أنها النهاية تعتقنا لبعض الوقت في هدنةٍ خادعةٍ؛ لتعيدَ إطباق قبضتها على أقدارنا من جديد ،وهكذا يومًا بعدَ يومٍ .

إنها الثامنةُ ليلاً حسب توقيت نينوى، صفّر الغولُ الحديديُ معلنًا بدايةَ رحلتي الأولى إلى المدينة المدورة، لم أزُرْ بغدادَ من قبل، ولا أعرف شارعًا من شوارعها، كان التوترُ مرسومًا على ملامحي، جاورتني في مقعد القطار سيدةٌ ستينيةٌ ترتدي الزيَ العربي، الكيش والملفع والثوب والزبون، سمراءَ بعينين نجلاءين يزين خدها الأيمن خالٌ كبير، لها أنفٌ مستدقٌ وشفتان مرسومتان، قالت إنها بابلية الأصل موصليةُ الولادة، أرملةٌ وأمٌ لثلاث صبية كبروا وصاروا رجالًا الآن، إمرأةٌ بروحٍ مقاتلةٍ شجاعةٍ، كانت هي كلَّ ما احتجته في رحلتي، حدثتني عن محطة القطار، قالت إن أولَ قطارٍ انطلقَ من محطة الموصل صوبَ بغدادَ كان في العام ١٩٣٠، و أنها تذكر ذلك اليوم جيدًا، ففيه فقدت أول أسنانها اللبنية، حكتْ لي كيفَ استقلتْ آخرَ قطارٍ خرجَ من الموصل ايامَ أحداث الشوّاف، أُعلن حظر التجوال بعدما عبرَ بها القطارُ محطةَ حمام العليل جنوبي الموصل :

_ كنتُ في المستشفى الجمهوري أرعى ولدي الذي أصيبَ إثر محاولةٍ لإغتياله في أحداث ١٩٥٩، تجندتُ حينها بمسدسٍ كان لزوجي المرحوم؛ لأذودَ عن ولدي في حال عادَ القَتلةُ لإكمال مهمتهم، تعافى ابني وأخذته إلى البيت، فجاءني الهدهدُ بنبأ مفادهُ أن أخاه الأوسطَ إعتُقلَ من قبل رجال السلطة بحجة انتماءه لتيارٍ سياسي معادٍ للنظام الحاكم آنذاك، سكتتْ للحظات ثم أضافت :

_لم أكن يومًا أرملة ضعيفة مهيضة الجناح، كنت امرأة بسبعة رجال ،خبأتُ مسدسي تحت إزاري وتسربلت بعباءتي وركبتُ القطارَ إلى بغدادَ بحثًا عن ولدي، كانت الجثثُ معلقة

بأعمدة النور، والهرجُ والمرجُ يعم المكان، رائحةُ الخراب تنبعثُ من كل الأركان، لكن ماذا تقولين لقلب أمٍ مكلومةٍ تبحث عن ضناها؟

وأنت ماذا عندك في بغداد ؟

_ابني مصاب في مستشفى الرشيد .

_أعرف الطريق إليها جيدًا، كنت هناك قبل شهرٍ حين طُعنَ ابن أخي في قاطع شرقي ديالى، لا تخافي سأوصلك حتى باب المستشفى بنفسي.

_ حقًا ! سأكون ممتنةً لك ، إنها رحلتي الأولى إلى بغداد .

_لا تحملي همًا أنا معك والله مع الكل .

أطرقتُ بعدها حين شعرتُ بضعفي ثم أردفت :

_وأنت ماذا عندك في بغداد ؟

_ ولدي الأصغر، مضى على موعد إجازته عشرين يومًا ولا حس ولا خبر، سأتقّصى أخباره من رفاقه .

تمنيتُ السلامة لابنها الغائب، عمَّ الصمت بعدَ ذلكَ و جفَّ سيلُ الكلامُ، فقد قالتْ كلَّ واحدةٍ منا ماعندها، جلسنا هكذا مطرقتين وسط غطيط وشخير بقية الركاب لما تبقى من الرحلة.

فتاةٌ بكماءُ في قريةٍ نائيةٍ

لا أدري ما الذي حدثَ، كان آخر ما سمعتهُ هو صوتُ ارتطام رأسي بالأرض، ثم مشهدُ امتزاج دمي بقطرات الندى، تشوشتْ الرؤيةُ بعدها وغبتُ عن الوعي..فتحتُ عينيَّ لأجد نفسي في غرفةٍ ضيقةٍ بشباكٍ صغيرٍ تحرسهُ قضبانٌ صدئةٌ تتسابقُ عندها حُزَمُ ضوء الشمس لدخول الغرفة..رجلٌ أشيب (العجوزُ الماكر) كان يحكمُ لفَّ ضمادةٍ بيضاء حول رأسي ويقول:

_ لا شيء يذكر إنه جرحٌ سطحي.

لاحظ العجوز الماكر أنني أفقت فقال:

_ أهلًا يا حلوتي ما اسمك؟

_ لا ردّ من طرفي.

تطلعت حولي، كنت على أريكةٍ مرتفعة تشبهُ تلك التي في عيادة الطبيب، وعلى طاولةٍ خشبيةٍ غير بعيدةٍ لمحتُ ادوات تمريض وضمادات، شابٌ بثوبٍ عربي يبدو في أوائل عشريناته (الشاب الطيب)

_ ابنةُ من أنت ؟ أين بيتكم؟

لا اجابة من طرفي مرة أخرى.

التفتَ الشاب الطيب إلى العجوز الماكر وقال:

_ كانت ملقاةً في العراء.. يسيل الدمُ من جبينها، طفلة مسكينةٌ.

_عليك أن تسلمها للشرطة، لا أحدَ يعلمُ أيّة مصيبةٍ قد تأتيك من ورائها .

_ سأفعلُ بالتأكيد إن لم يسألْ أهلها عنها.

غادرَ الشابُ الطيب وعادَ بعدَ نصف ساعةٍ يحملُ صرةً قماشية وضعها جانبًا، اقتربَ مني وساعدني على الإعتدال، فتحَ الصرةَ وأخرجَ برتقالةً قشرها وأطعمني والإبتسامةُ تطفحُ من عينيه ..

لـم أكـن أعلـمُ أنني جائعـةٌ لهـذا الحـد، حاولـت أن أتـذكرَ آخـرَ طعـامٍ دخـلَ جـوفي، فقفـزَ عقلي إلى بيـت جـدي في الموصـل، وإرتسـمتْ في مخيلتي ضـحكةُ أبـي وهـو يمـازحُ الجـدةَ، ثـم وكمـا في أفـلام السـينما انتقـلَ العـرضُ الـذهني إلـى مشـهد الحريـق وطقطقـة أعمـدة الخشـب المحترقـة وصوت أبي ينادي :

_زياد .. آسيا

التوى شيءٌ في جوفي، واعتُصر فؤادي، فأعدت أشياف البرتقال إلى الشاب الطيب، أخذَ الشاب الطيبُ بيدي وخرجنا نمشي، لا شيء سوى فضاءاتٍ أجدبها البردُ وبيوتٍ طينٍ متناثرةٍ، لاأثر لنهر قريب..أشجار تينٍ وأشجارُ اوكالبتوس..ونساء بأوشحة وملابس قروية ورجالٌ بثيابٍ عربية، لن يعرفني أحد، المكان يبعد مسيرةَ ساعاتين بالسيارة عن القرية حيث عمل والداي، وصلنا مرجًا تغطيه براعم القمح الفتية، بقرةٌ بيضاء وعجل صغير يمرح على بعد خُطىً منها..كانا منهمكين بقضم أعواد القش المكومة أمامهما بنهمٍ .. قابلنا بعد ذلك ديكٌ بنيٌ مبرقش تتبعهُ ثلاثُ دجاجاتٍ..وقبل أن ينتهي المشوار لمحتُ دجاجة رابعةً تترأس عشرةَ صيصان كانت تنبش الأرض بمخالبها؛ لينقرُ الصغارُ ما يظهرُ لهم على وجه الأرض، طرق الشاب الطيب باب كوخ طيني ففتحت له سيدة بدينة بخدود قرمزية، سأسميها في سرديتي (السيدةُ

عصبية)، دخلنا الكوخ المتكون من غرفة واحدة فسيحة، تكلما بلغة لا أفهمها، بدت الأم غير راضيةٍ عن وجودي، استندت إلى الجدار انتظر أن ينفض النقاش بين الشاب الطيب وأمه، سكتت السيدة عصبية أخيرًا وخرجت من الكوخ تهذر وتتوعد، عادت بعد ذلك بصينية الغداء، رفضتُ الطعامَ بإشارة من يدي رغم أم معدتي كانت تصرخُ من الجوع، نمت مكاني من شدة التعب، وحين فتحت عيني كانت الشمسُ توشكُ على الأفول، البابُ مفتوحٌ والشابُ الطيب يقف خارجًا ببدلة خاكية، كنتُ قد حفظتُ هذا المشهدَ في السنوات الأخيرة، مشهد التحاق الجندي إلى الجبهة ...قال مخاطبًا شابًا آخر في مثل سنه :

_ نستقل قطار السابعة وعند الفجر نكونُ في بغداد، ومن هناك نأخذ سيارات العمارة .

طافت ذكرى أبي بخاطري حينما ذكر الشاب الطيب كلمة العمارة.

_ هل شعر رفاق أبي بغيابه ؟ هل افتقدوه ؟ وماذا عن تلاميذ أمي ؟ من اعطاهم الدرس بدلًا عنها؟

غادر الشاب الطيب ملتحقًا بالجبهة، وحين خيّم ظلامُ الليل على القرية اقتربت مني السيدة عصبية وهزت كفها في الهواء بتذمر كانت ترغي وتزبدُ وتتوعدُ بكلمات لا أفقهها، أكملت خطابها ووقفتْ جانبًا وأشارت إلى باب الكوخ، فهمتُ أنها تطلب مني المغادرةَ، فأذعنتُ ككلب مطيع .

كان الظلام شديدًا والهواءُ البارد يخترق الجلدَ واللحمَ إلى العظم ثم يعرج على الروح الكسيرة ليزيدها وحشةً وضعفًا، كان الخوف يتملكني وذكرياتُ الليلة الماضية تعذبني، فلم أمض بعيدًا، درت حول البيت فرأيت في الزواية الصغيرة بين كومة الروث اليابس وتنور الطين مأوىً مناسبًا، وما أن وطأت قدمي المخبأَ الجديدَ حتى قفز من الزاوية جزذٌ، انتفضتُ مجفلةً وعدتُ أدراجي أقصدُ الكوخ، لم يكن أمامي سوى البكاء والتوسل بالسيدة عصبية لتسمح لي بالمبيت وقبل أن أصل الكوخ تذكرت أني عاجزة عن الكلام... ففطنت أن بإمكاني التعامل مع باب الزريبة الذي كان مربوطًا بخرقة ثوبٍ قديمٍ ...نظرتُ حولي ثم فتحت عقدة الباب ودخلت كان المكان رحبًا، لا شيء سوى كومٍ من القش على

يمين البوابة، البقرة وعجلها إلى اليسار، والغنماتُ في الزاوية الأبعد من الباب، باتت الدجاجات والديك على عارضة خشبية تمتد على بعد نصف متر أسفلَ السقف، استقرت الدجاجة السوداء وصيصانها فوق كوم التبن، ألهاني صوتُ مصغ البقرة واجترارها وبقبقة الدجاج ورفرفة الديك عن الغوص بعيدًا في متاهات عقلي، سقطتُ بعدها منهكةً فتمددتٌ على كوم القش، كان له رائحةُ عفنٍ وروثُ حيواناتٍ ... نمت حتى صاح اول ديك معلنًا بدء يومٍ جديد، حدستُ أن العجوز ستأتي لإخراج الماشية إلى المرج، غادرتُ بهدوء، خرجت إلى الطريق، مشيتُ هكذا دون وجهةٍ، كنت قد أمضيت يومين بلا طعامٍ ولا شرابٍ، يبدو أني سقطتُ مغشيًا عليّ فقد فتحت عينيّ لأجد نفسي في المكان ذاته حيثُ عولج جرحُ رأسي بالأمس وإلى جواري العجوز الماكر، كانت السيدة عصبية تصرخُ وتولولُ وتتذمرُ عند رأسي، تظاهرتُ بالإغماء من جديدٍ هربًا من تأنيبها

قال العجوزُ الماكرُ:

_أنا أُخلّصك منها .

انقبض قلبي خوفًا، ما الذي سيفعله بي هذا الثعلب؟

تحدثت السيدة بعربية مكسرة قائلةً:

_كيف ؟

_أرميها عند باب الميتم .

_في الموصل ؟

_ لا طبعًا، الموصل قريبة من هنا، سيصلون إليك وتَقعين بين سين وجيم... سآخذها إلى ميتمٍ في قريةٍ نائيةٍ تديرهُ امرأة مجنونة، فقدت عقلها بعد أن ماتَ ولداها في الحرب، سأرميها عند الباب، ولا أحد سيعرف من أين جاءت الفتاة البكماء؟ وينتهي الامر .

تنهدت السيدة بارتياحٍ علامة على الموافقة، اتفقا أنها ستمنحه مكافأة قيّمةً مقابل التخلص من المصيبة المتمثلة بي، وقبل المغادرة وعدَ العجوزُ الماكر إنه سَيمر فجرًا ليصحبني إلى الميتم، أوصاها أن تطعمني جيدًا، مخافة أن أموت في الطريق فيبتليَ بي .

أخذتني السيدة عصبية ذاتُ الخدود القرمزية إلى البيت على ظهر حمارٍ، وفي المساء نحرتْ إحدى دجاجاتها وأعدت حساءًا، قدمت لي حصة سخيةً لأتعشى كان الجوعُ يقطّع أحشائي، لكن ذكريات حساء حليمة كانت لا تزالُ أمام عينيّ، تناولت كسرةَ خبرٍ ومضغتها بصمت، غرقتُ بعدها في سبات عميقٍ دون التفكير بالصور المحتملة لرحلتي المرتقبة، أغلق التعبُ والإنهاكُ كل مسارات عقلي وأصابها بالشلل، استيقظتُ قبل الفجر اعتدلت في فراشي...مرتْ صاحبة الدار من أمامي ومضتْ لإطعامَ حيواناتها، عادت بعدما انبلج الضياء، أخبرتني أن رفيق سفري وصلَ، نهضت ومشيتُ خلفها وفي طريقي إلى الباب وقعت عينيّ على إنعكاس صورتي في مرآة صغيرة يحتجزها على أحد الجدران مسمارٌ صدىءٌ، بالكاد تعرفتُ على نفسي، كان وجهي ممرغاً بالاوحال والسخام ، تذكرت وقوعي حينما كنت أحاولُ الهربَ ساعة الحريق، الضمادة لا تزال تعصب رأسي وشعري مشعثٌ وضفيرتاي تبدوان بحالةٍ مزريةٍ .

قالت العجوز بتذمر :

_ أسرعي .

خرجت تاركةً صورةَ وجهي المعفر بغبار المأساة محبوسةً في مرآةٍ على جدارٍ طيني في كوخ وسط قرية على الحدود لن أعود لها ثانيةً .

مشيتُ بخطى خفيفة صوب سيارة نقل كانت تقف على بعد بضعة خطوات، شابٌ جالسٌ خلف عجلة القيادة ويقف

العجوز الماكرُ بانتظاري، تقدمت نحو المركبة التي ستُقلني للمجهول، فنادت السيدة عصبية عليّ :

_هييي...

التفتُّ فعانقتني وناولتني رغيف خبز زادًا لطريقي، ورطنت بكلمات تشبه هواء الصبح المنذر بالصقيع، ثم مسحت بطرف وشاحها دموع وهميةً ممعنةً في حبك المشهد الوداعي .

حضنٌ ورغيف خبزٍ وكلماتٌ حبٍ بلغةٍ مجهولة ودموع كذبٍ، وردةٌ وسط حقلٍ مليءٍ بالاشواك ، شرارة صغيرة في نفقٍ معتم، أشياء تشبه القرابين التي تُحرق لتكفير الذنوب، الأداء المؤثر الذي نحرص على تقديمه في المشهد الاخير لنطمس ملامح القبح عن وجوه أفعالنا، كقُبلة على جبين ميت أذقناه مرّ العيش يوم كان حيًا يتنفسُ، جرعة مخدرة لإسكات تأنيب الضمير.

تناولتُ رغيفَ الخبز ومشيت تتبعني السيدة عصبية، ساعدتني على الصعود إلى الجزء الخلفي من الشاحنة، جلست هناك أرتجف بين حزم الاغصان اليابسة .

لوحتْ لنا السيدة عصبية ثم انصرفتْ إلى عملها، أستطيعُ الآن أنْ استشعرَ إحساسها العالي بالارتياح، ذلك الإنعتاقُ المنعش الذي خلّفه رحيلي في عالمها المحدود .

حاولت فيما بعد أن أستذكر صورة الشاب الطيب ، لكن ملامحه ظلت باهتة، استبدلها عقلي مع تقادم السنين بصورة أبي .

مشينا نقطع الفيافي والحقول، فلاحونَ يعملون في حقولهم ورعاةٌ يقودون أغنامهم إلى الماء والخضراء ونساء يحملْنَ حزمَ

الحطب أو أكداس العشب، هذه لتسجر التنورَ، وتلك لتطعم دوابها، عجلاتُ السيارة تلتهم المسافات ويقترب قدري من وجهته المبهمة، ماذا سيكون مصيرُ فتاةٍ في العاشرة في دار للأيتام ؟!

حاولتُ أن استعيدَ أطراف الحكايات التي عاش ابطالها في دور للأيتام من بين القصص التي واظبتْ أمي على حكيها لي، لكن أبوابَ الذكريات الدافئة في عقلي كانت مؤصدةً بأقفالٍ من حديد حينذاك .

تسلقتْ الشمسُ قبةَ السماء غيرَ مكترثة بما يجري على الأرض، فلمعَ قرصها في قلب السماء لينعكس شعاعها على نصل منجلٍ لسيدة بثوب اصفر تجزُّ العشب في حقل على جنب الطريق، فاستشعرت بعض الدفء وخفّ ارتجافي .

دجلة تنحدر جنوبًا بين البساتين وبيوت الطين أكواخ جريد النخل وحقول القمح، مُغويةً من أغلقت الدنيا أبوابها بوجهه بإنهاء عذاباته بغطة واحدة أو اثنتين ثم ينتهي كلّ شيء.

توقفنا على الجهة الغربية للطريق المترب وترجّل السائق ونادى :

_ يا أهلَ البيت .

مرت بضع دقائق قبل أن يعيد سائقنا ندائه ليأتيه المجيب من بين أشجار التين التي عرّتها قسوةُ الشتاء، صوتٌ مفعمٌ بالبهجة :

_ حيّاك الله

اقتربَ المُضيّف من السائق وضمهُ في عناقٍ أخويٍ دافءٍ، أشارَ إليّ العجوزُ الماكر كي أنزل، مشيتُ خلفهُ، نزلنا من الشارع إلى أرضٍ مجاورةٍ، تجاوزنا

بستان أشجار التين إلى ساقية ماءٍ، احتجت لقفزة أكبرَ من المعتاد لعبور الساقية، بيتٌ حجريٌ من غرفتينٍ وفناءٍ صغيرٍ ونخلتين فتيتين وفي ظلهما بضع شجيرات وردٍ، كان مضيّفنا رفيقًا لسائقنا في السلاح، تذكرتُ ما فعلهُ لعائلتي رفيقُ أبي في السلاح ...

أطلتْ بعد ذلك سيدة البيت تحمل صينية الطعام ووضعتها أمامنا لبن وبيض مقلي وخبز تنور وشاي، غادرنا بعدما أفطر السائق والعجوز الماكر، أمام توسلات الرجل وزوجته للبقاءٍ لمزيد من الوقت، تعللَ سائقنا بطول الطريق، وضرورةَ الوصول قبل حلول الظلام، أهدتني سيدةُ ساقية الماء سترةً صوفيةً قالت إنها صغُرت على ابنتها...تذكرت أني تركتُ معطفي في الفراش في بيت بهجت قبل اندلاع الحريق، نجوتُ أنا واحترقٍ معطفي، وربما احترقتُ أنا ونجا معطفي ...

ارتديت سترتي الجديدة، كانت عابقةً بعطر دافئٍ يشبه رائحةَ ثياب الجدات المخبأة في صناديق يفوحُ منها مزيجُ من شذى المسك، وبتلات الورد الجوري، ومزيجٌ من الازهار والأعشاب العطرية التي تطيّبت بها جدات ذلك الزمان قبل أن يخطرَ للإنسان سَجْن العطر في زجاجة .

قفزتُ عائدةً إلى مكاني بين أكوام الحطب وحُزم الشوك وبقايا التبن، كانت العربة تهزني كأرجوحةٍ ويغمرني الدفءُ والأمانُ المنبعثان من سترة

السيدة الطيبة فغفوت؛ لأفتح عيني بعد ذلك، كانت الأرضُ تنبسطُ على جانبي الطريق سمراءَ كجباه المنهكين، خُضرةٌ خجولة تبزغُ كل هنا وهناك، عجلات السيّارة تدورُ وتدورُ وطريقنا لا ينتهي.

أطلّت بساتينُ النخيل من بعيدٍ، وتغيرتْ طبيعةُ الأرض حتى شعاع الشمس المحمر خجلاً خلفَ تيجان النخيل كان مختلفًا عن شعاعها هناك في أرض الشمال والشمال الغربي.

انعطف السائق بنا يسارًا، توغلنا بين غابات النخيل وبساتين الفاكهة، ثم توقفنا عندَ سورٍ بإرتفاع متر ين تعلوهُ أسلاكٌ شائكةٌ،وبوابةٌ معدنيةٌ صدئةٌ أمرني العجوزُ الماكر أن أنزل فنزلتُ.. تبعني وخلع قرطي الذهبيين الذين كانا لا يزالان معلقين في أذنيّ، ثم اقترب وقال هامسًا:

_أترين ذلك البابَ؟ اذهبي واطرقيه وحالما يُفتح إدخلي.

ثم تركني وابتعد ،تبعتهُ باكيةً، فصفعني بكفه الثقيل، ثم قرص أذني ودنا بوجهه مني ونظرَ إليّ شزرًا وقال :

_ تذهبين أم آخذك وأرميك في النهر ؟

درتُ على كعبي وعدتُ إلى الباب الذي لا أعلم ما خلفه، طرقتُه الهوينةَ بادئَ الأمر وحينما تملكني الخوفُ واليأسُ ركلتهُ بقدميّ ويديّ، ولا مجيبَ .

صارت العتمةُ تسابقُ الضياءَ، وَضع الشمس كان حرجًا، وأفولها وشيك، ستنام خلفَ الأفق بين دقيقةٍ وأخرى.

هل سأظلُ ههنا بين البساتين تحتَ جنح الظلام ؟

يا إلهي! لماذا لم يلقني العجوزُ الماكرُ في النهر كما توعّد ؟!

لماذا لم تنقلبْ بنا السيّارة ؟!

لماذا لم أحترق مع عائلتي؟!

استسلمت الشمسُ لسدول الظلام غيرَعابئةٍ بتوسلاتي، كانت كل ثانية تمرُ تزيدني رعبًا وهلعًا، سمعتُ صوتَ كلابٍ من بعيدٍ، تخيلتها تنقضّ عليَّ وتمزقني إربًا ؟

ماذا لو خرجَ من العتمة ذئبٌ؟ أو حيوان بري؟ إنني هالكة لا محالة!

اشتد الظلامُ من حولي، فجلستُ على الأرض يلفني معطفُ السيدة الطيبة جارةُ الساقية، تنفستُ عبق المعطف، فقررت أن استسلم لقدري، مضى وقت طويلٌ قبل أن يُغشي بصري ضوءٌ ساطعٌ، مصابيحُ سيارةٍ من طرازٍ عتيقٍ كانت تقتربُ...

لم يكن بمقدوري إبصار من بداخلها، ركضتُ بوجه السيارة كتائهٍ على جزيرةٍ نائيةٍ يلوّحُ لأيّ صاريةٍ تقترب من الشاطئ حتى لو كانت سفينة قراصنة، ترجّل من السيارة رجلٌ وامرأةٌ، وضعاني

في المقعد الخلفي، سارت بنا السيارة داخل الحصن، بستانٌ شاسعٌ أُقيمَ على أرضٍ تكفي لبناء عشرينَ بيت على الأقل، تنتصبُ جذوعُ النخيل، وأشجارُ الفاكهة وفي طرفه الغربي، بيت من ثلاثة طوابقَ، إذا إحتسبنا

غرفتي الخزانة على السطح، بوابةٌ خشبيةٌ مهيبةٌ وصلناها بعد ارتقاء ثلاث درجات رخامية عريضة، وفوق الباب لافتةٌ صغيرةٌ كُتبَ عليها:

"دارُ الأمل لرعاية الأيتام "

عبرنا من البوابة إلى صالةٍ فسيحةٍ، تنتظم فيها الارائك المنجّدة بقماشٍ براقٍ، وفي طرف البهو طاولةٌ خشبيةٌ حولها عشرةُ كراسٍ، سيدةٌ سمراءٌ بدينةٌ لها أسنانٌ ناتئةٌ وذقنٌ مزدوجٌ وخدودٌ منتفخةٌ ..

التفتتُ إلى المرأة التي أنقذتني، سيدةٌ سمراءٌ بوجهٍ بيضوي وعينين حزينتين، وانفٍ مستدقٍ وشفتين رفيعتين، تلتفع بشال أسود هربت من طرفه بعض ذوائبها وقد أضاء سوادها بياض الشيب، ترتدي ثوبًا أسود اللون، أشارتْ لذات الذقنين بأن تشعل المدفأة حين لحظت ارتجافي، دخل السائق يحمل بطانية، أحكمت السيدةُ لفي بها، قربت المدفئة مني وربتتْ على شعري، كانتْ معركةُ الخوف واليأس ضدَ الأمن والرجاء لم تحسم في عقلي بعد، التفتت السيدةُ المنقذةُ إلى الأخرى وقالت :

_ شاي وكعك بسرعةٍ، تبدو جائعةً.

فـي غضـون دقـائقَ كـان الشـاي والكعـك وبعـض التمـر أمـامي، حركـتْ السـيدةُ السـكرَ فـي كـوب الشاي وقربته من شفتيّ، نظرتْ في عيني وقالت:

_ اشربي لتدفأي بنيتي.

نـاولتني حبتـي تمـر وقطعـةَ كعـكٍ... فهـدأ ارتجـافي، ثـم صار الكرى يصارع اجفاني.

أمين

العُقاب الأعرج

أفقتُ على ألمٍ مبرحٍ يلتهمُ ساقي اليُمنى، تلفت حولي كانت غرفةً بسريرين تعبق بمزيج رائحة الدم والمطهرات، تلك الرائحةُ البغيضةُ التي تذكرني بكل لعنات الحرب التي شاهدتها طوال سنواتي الماضية، احتل سريري المساحة الأقرب من الشرفة المطلة على فناء المشفى، كانت أمي، تقفُ مع سيدةٍ أخرى على بعد نداءٍ مني، والحزنُ يكللُ وجهها وهالةُ الأسى تُشعُ من عينيها لتغمر المكان بأسره، ناديتُ :

_يوم .. يوم .

جاء صوتي متعبًا ومكتومًا، يشبه سقوط عملة معدنيةٍ على سجادةٍ متربةٍ.

جفلتْ أمي حين سمعت صوتي، ركضتْ إليّ، همّت بالكلام فعاجلتها الدموع لتعلق الحروفُ في حنجرتها وتخرج متقطعة وغيرَ مفهومةٍ، ثم انكبت عليّ تعانقني وتمطرُ جبيني بالقبل وتذرفُ دموعًا استطعمت ملوحتها على شفتيّ، أحاطنا بعدها صمتٌ مهيب إلا من نشيج أمي وإنسكاب بواكيها .

_أنا بخير، ها أنا ذا، لا تبكي، سأعيش مئة عامٍ أعدك بذلك.

هربَ الألم من حضرة أمي، ومن كفها الحانية حين مسحتْ على وجهي وربتتْ شعري، لكنه عاودني بعدها فقلت:

_ أماه مسدي قدمي اليمنى، تؤلمني وكأنها تحترق .

تغيرت ملامحها فأجابت متلعثمة :

_إنها تحت الضماد بنيّ، أخشى أن أوذيك إن لمستُها.

كان الألمُ ينهش جسدي وروحي، نادتْ أمي على الممرضة التي اقتربت وتناولتْ رسغي وتحسستْ نبضي ودفعت في قسطرتي الوريدية دواءًا نمتُ بعدها، لتزورني الكوابيسُ، سربُ الإوز المهاجر يحلق على ارتفاع خفيض، ركعتُ على الأرض ليمر من فوقي، وحين رفعتُ رأسي .. كانت الوزات كلها بساق واحدة، سرب من الوزات العرجاء، حلّقَ السربُ مُبتعدًا، فانفرج الفضاء أمامي، صحراءٌ خاويةٌ إلا من أطلال كوخٍ محترقٍ والدخان ينبعث من بقايا الحريق وفتاةُ السخام تطوفُ حول الحطام...

حاولت أن ألحق بها لكنني عجزت، نظرتُ أرضًا ،كُنتُ حافيًا، ساقي اليمني تغطيها ضماداتٌ مخضبة بالدم، هربتْ فتاة السخام بعيدًا، ناديت عليها لتعودَ فلم تجبْ، ركضت بأثرها فعلقت ثيابي بسلكٍ شائكٍ ، صحت من مكاني :

_ عودي ..

فتحتُ عينيّ، كنتُ في سرير المشفى في الغرفة ذاتها، المكانُ مترع بالضياء، وذراتُ الغبار تتراقص في حزمُ النور الهاربة من بين الستائر، رائحةُ الدم والصديد واللحم المحترق المطلة من خلف الرائحة الحادة لسائل التعقيم، الممرضةُ تهذرُ في الممر بعباراتٍ عربية تشوبها مصطلحاتٍ علميةٍ انتحرتْ قبلَ أن تُنطق ...

الواقعُ لا يقلُ ظلاميةً عنْ حرائق كوابيسي . انتابني غثيانٌ ووهنٌ وأغرقني ضيقٌ وكآبةٌ علاوة على آلام ساقي.

دخلَ الغرفةَ طبيبٌ مسنٌ يمشي بخطىً ثابتةٍ كالسبع، كنتُ قد عملتُ تحت إشرافه في ردهات هذا المشفى .

تقدّمَ نحوي يتبعهُ كادرٌ طبيٌ متكاملٌ،كنتُ شبهَ ممددٍ في سريري والأنابيبُ تتدلى من كل مكانٍ من جسدي .

وقفَ عند ساقيّ ورفعَ الغطاءَ عن نصفي السفلي ، نظرتُ إلى نفسي.. أنا بساق واحدة !

قلت دون تفكير بلهجة أقربُ للصراخ:

_بُترتْ ساقي!

رشقني الجمعُ المرافقُ للطبيب بنظراتٍ تتراوحُ بين الشفقة والتعاطف واللامبالاة.

دارتْ بي الأرضُ بسرعةٍ مدوّخةٍ، فتلاشى العالم عن ادراكي، شعرتُ أن عظامي تنسحق تحتَ وطأة واقعٍ لم أختره ولعناتٍ وتعاويذَ لم أجلبها ...

حقًا! سأكملُ حياتي هكذا بطرفٍ مبتور؟

تخيلتُ مستقبلَ العدّاء حاصد الميداليات الذي انتهى بعكازين.. عكستْ مرآة روحي كل الصور التي أتذكرها لنفسي وأنا أعدو وأمشي وأقفز ثم عبرتُ إلى المستقبل هل سآخذُ دورَ الرجل ذي العكازين أو الكهل على الكرسي المدولب؟

قطع عليّ أستاذي رحلة إبحاري في محيط خيبتي قائلاً:

_ كيف حالُ البطل؟

أجبته بإيماءة، إذ لم تسعفني لغتي اللحظيةُ لوصف حال البطل الذي يسأل عنه.

_ لا أريدُ أن أرَ مسحةَ الإنكسار على وجهك، ما أن تُشفى سأحيلك إلى التأهيل الطبي ستحصل على ساقٍ صناعيةٍ، ستجتازُ هذه المحنة وستعيش لتحكي قصةَ عبورك للأجيال القادمة.

كنتُ أنزُّ بؤسًا، حين ربت أستاذي على كتفي ومضى مغادرًا، عصر الحزنُ فؤادي ككفٍ قاسيةٍ، وقرضَ البؤسُ أهداب روحي كجرذٍ نهم، كنتُ كقارب بلا مجاذيف يدور في دوامة إمكانية النهوض بعد النكبة تتقاذفُه أمواجُ التأريخ العامر بكل ما هو موجعٌ ووحشيٌ وقاسٍ، التأريخُ الذي سننقلهُ للأجيال القادمة!

أما العبورُ الذي تحدث عنه الأستاذُ الطاعنُ في الحكمة فلم يكن ضمن مدى رؤيتي ذلك اليوم. كان يومًا من أتعس أيامي، كنت كجثةٍ مشنوقةٍ تتدلى من سقفٍ، كل ما يربطني بالحياة هو الحبلُ الملفوفُ حولَ عنقي، الحبلُ المجدولُ من ألق الماضي وخيبة الحاضر وضبابية المستقبل، أحملُ كلَ معاني الموت، ميتُ رغم أن هذه الروحُ لم تزل حبيسةَ عتمةَ هذا الجسد.

حلّ الليلُ ونامت العيون فانقضّ الألم عليّ بكل وحشيةٍ وضراوة؛ فصار انتحابي مسموعًا ككل الجرحى الذين مروا عليّ كطبيبٍ جرّاح.

في الصباح التالي هربتُ من آلامي ومرارة الواقع الجديد الذي دهمني بين عشية وضحاها، فعجزتُ عن فهمه ومواكبته إلى دنيا الذكريات، تذكرتُ كيف لوى صادق كاحله إثر إحدى قفزاته المتهورة أيام الصبا فلزمَ الفراشَ لأسبوعين، كان يستعين بي ليتعكزَ عليْ ويتوكأ على كتفي. صادقٌ ذو الروح الوثابة التي منعته من الرقود في سريرٍ لأكثر من ليلة، تشبثتُ بأمل وصوله الوشيك لأتعكزَ على كتفه، ليمسح عني الحزن، ويربت على مواطن وجعي ...تخيلته يعزفُ لي على العود لحنًا حزينًا فأستسلمُ لضعفي وأبكي، وحده أخي كان قادرًا على

مواكبة خطواتي وحجلي، وحدهُ يملكُ تعويذةَ تبديد حزني، وقنوطي، وتضميد جراحي.

أخي هو النسيم الذي سيبدد سُحب اليأس ويوقد سراجَ الأملَ بعدما أظلمت حياتي، إنه أخي وصديقي، الفتى المغامرُ الذي أكتملُ بوجوده وأستند إليه....

لكنّ صادق لم يظهرْ ولا أخبارَ وردتْ منه، رفاقهُ في الجيش قالوا إنه لم يلتحق بعد الخامس والعشرين من كانون الأول، ولا أحد من الجيران رآه في البيت أو المنطقة، وصديقاتُ سلمى قُلن إنها متغيبةٌ عن العمل، وأهلها لم يروها منذ زيارتها الأخيرة لهم.

أين ذهبوا !؟

كانت الأفكارُ والهواجسُ تتزاحمُ في عقلي، فكرت بكل الاحتمالات؛ فلم أجد أيّ تبريرٍ منطقي لغياب أخي، وتخلفه عني في ظرفي هذا، لا شيءَ بوسعه أن يمنعَ صادق عني وأنا راقد بين الحياة والموت .

الموتُ تلك الغمامةُ الداكنةُ التي تعمدتُ تجاهلها رغم أنها كانت تكبرُ وتكبرُ حتى حجبتْ كل الذرائع المضيئة التي قد ألتمسها لأُعللَ غيابهُ، تعمدتُ الهروب من هاجس الموت الذي ما فتىء يطرقُ بابي...المسوّغ المنطقيُ الاكثر قبولًا لإختفاءه.كنتُ لا أزال في مرحلة الإنكار، تهربت من الحقيقة وتشبثت بكل ضعفي بحبال الآمال الواهنة.

بعد أيامٍ طالت قدر ما طالت عاد الطبيبُ الأستاذُ لعيادتي كان يمشي كملكٍ برأسٍ مرفوعٍ

وجبـــينٍ مقطـــبٍ وعلـــى شـــفاهه شـــبحُ إبتســـامةٍ، فحصـــني فحصًـــا عامًـــا، ثـــم أمـــرَ معـــاونُ الطبيـــب بفـــضّ الضـــماد عـــن عقيرتـــي، تفحـــص الجـــرح بأصـــابعٍ خبيـــرةٍ لا تأبـــه لآلامـــي، التفـــتَ إلـــى الطبيـــب الأصـــغر سنًا وقال :

_ عملٌ لا بأسَ به.

ثم نظرَ إليّ نظرةَ القائد الفخور بجنديه وقال :

_ ستعودُ للحياة بدءًا من صباح الغد .

كـــانَ الخـــروجُ إلـــى الـــدنيا مـــن جديـــد وإكمـــالُ المســـير بحـــالي تلـــك أكثـــر الطـــرق التـــي ســـلكتها وعـــورةً، وأشـــقّها عليّ...كنـــتُ مجبـــرًا علـــى البـــدء مـــن جديـــدٍ، تســـريحي مـــن المنظومـــة العســـكرية يعنـــي أنـــي قـــد فقـــدت عملـــي، وعلـــيّ أن أشُـــقّ طريقـــي فـــي مضـــمارٍ جديـــدٍ مختلـــفٍ وقبـــل هـــذا علـــيّ أن أتعلـــم المشـــي بمســـاعدة عكـــازين حتـــى يحـــينَ أوانُ حصـــولي علـــى ســـاقٍ خشـــبيةٍ، لـــديّ الكثيـــر لأعتـــاد عليـــه، لقـــد أحرقـــت الحـــرب ســـنين عمـــري التـــي أمضـــيتها أمشـــي وأتحـــرك بكـــل حريـــة، كنـــت ملزمًـــا بتغييـــر كـــل الخطـــط إلى خططٍ بديلةٍ لا تحتاج لإنسانٍ بساقين اثنين.

غابـــتْ الشـــمسُ، وحينمـــا أشـــرقت مـــن جديـــدٍ كـــان جارُنـــا الطيـــبُ يفـــتحُ قفـــل بـــاب بيتنـــا، ويســـاعدني اثنـــان مـــن شـــباب الحـــيّ علـــى الترجـــل مـــن الســـيارة التـــي نقلتنا إلى أمّنا الموصل.

شعرتُ أنَّ غلالة داكنة تغلف أجواء البيت، إذ لم تغمرني بهجة الوصول تلك التي كانت تهيلني كلما عُدت للدار منذ أيام المدرسة.

دقّت العكازةُ أولى دقاتها على بلاط بيتنا، معلنةً بدء عهدٍ جديدٍ من حياتي .

منظرُ أوراق الأشجار تغطي أرضيةَ المرآب والحديقة، وعريشةُ العنب المتجردة من أوراقها، وثمارُ الليمون الملقاة على العشب وأصصُ الورد الميتة، وغيابُ العصافير والحمائم التي إعتادت أمي إطعامها، كانت كلها صورٌ تحكي حزنَ الدار على أهلها .

في الداخل كان البردُ لا يحتملُ، لسعت رائحةُ الهواء الراكد منذ أسابيع رئتيَّ وخامرني شعورٌ مؤلمٌ بالافتقار لحياةٍ مضت، ولن تعودَ، حياةٌ كنت أحسبها عاديةً لا تحملُ أيّ مزية...وها أنا أدرك أنّ إنعدام المزايا لا ينقص قيمة الأشياء ولا ينفي عنها سمةَ الإكتمال.

عود صادق كان لا يزال مسجياً على طاولة غرفة المعيشة بانتظار أوبة عوّاده .

نور

كانت نور لتصبح زوجتي لولا أن الله يأتي بالمحن لتكونَ الفرصةَ الأنسبَ لسقوط الأقنعة، وظهور الوجوه الحقيقية المختبئة خلفَ ستائر مثاليات المجتمع المؤمن بأنّ كل شيءٍ يجبُ أن يكون كاملًا؛ ليظهروا كما هم دونَ مساحيق تجميلٍ تخفي عيوبَ أرواحهم التي لا يُرجى لها شفاءٌ.

راهنتْ نورعلى الحصان الرابح، الضابطُ ،الطبيبُ، ابنُ العائلة المعروفة، فقبلتْ الإقترانَ بي وربطتَ مصيرها بمصيري....وحين كبى الفارسُ عن جواده، سارعتْ لتغيير الرهان.

لم تبادر إلى الاتصال أوالزيارة وقد مضى على إصابتي أكثرُ من شهرين، خمنتُ أنّ شيئًا يُدبرُ من وراء ظهري، لكنّ حزني على ما أصابني، ولوعتي على غياب أخي وعائلته كانت تُغرق دهاليزَ قلبي وعقلي بالكامل، وتتركني عاجزًا عن الإتيان بأيّ ردّ فعل لما يدورُ حولي .

كانتْ ظهيرةً ساكنةً كسكون الموتى، السماءُ مجللةٌ بغيومٍ رماديةٍ داكنةٍ كعيونٍ تخنقها العبراتُ دونما بكاءٍ، أنا وأمي نجلسُ متقابلين في غرفة المعيشة، أمي تحملقُ في الفراغ وأنا أتظاهر باني أقرأ كتاباً، كنت الناجي الذي أدركَ للتو أنه "نجا من مات ومات من نجا "

طُرق البابُ فخرجتْ أمي لتجيبَ الطارقَ الذي كان مأمورَ محكمة الأحوال الشخصية، جاء ليسلمنا ورقةً يبلغنا بها أنّ (نور) قد رفعت ضدي قضية تطالب فيها بالطلاق .

لم يفاجئني لا المأمورُ ولا قضيةُ التفريق، على العكس، كنتُ أريد إنهاءَ تلك الحكاية كثقلٍ وددتُ التخلص منه.

استعنت بمحاميةٍ كانت صديقةً لأمي منذ أيام المدينة القديمة، لتكون إلى جانبي تحسبًا لأيّ طارئ، كوني غيرُ ضليعٍ في دروب المحاكم، فنحن عائلةٌ ندخلَ المحكمةَ مرةً في العمر .

وبعد أيام وقفتُ أمام القاضي وحيداً أتوكأ على نفسي ويستند قلبي إلى أضلعي مستعينًا بعكازين ينغرسان تحت ذراعيّ حدَّ الإيلام ليذكراني بعجزي كلما نسيته .

في قاعة المحكمة وأمامَ القاضي والمحامية الموكلة عني وجمعٌ غفيرٌ من رواد المحكمة وقفتْ خطيبتي السابقة لترد على القاضي الذي رأى أنه لا داعي للإنفصال وتقول :

_ لست مضطرة لإفناء شبابي برفقة نصف رجل .

كنت كسفينةٍ أحرقَ البرقُ قلوعها، تُبحرُ على أمل أن يأخذها الموجُ إلى شاطئ أمان فارتطمت بخليجٍ صخري .

كانت نور ستكون منصفة لو أنها نعتتني بنصف روح، فقد أضعتُ نصف روحي بين إنتهاء عام وطليعة آخر، لكن السهم جاء في مقتل، الرجولة لا تُنقصها ساقٌ بترتها شظيةٌ مشتعلةٌ انشقتْ من صاروخ أرعن، لم أكن يومًا نصف رجلٍ ولم اتبنَ أنصافَ المواقف، كنت رجلًا وإنسانًا بكل جوارحي رغم ما اغتالته الحرب فيّ .

طلقتها بسلامٍ دون إثارة أيّ لغطٍ أو جدلٍ وعدتُ إلى البيت، بعد أن خبأتُ خيبتي الجديدة مع رفيقاتها في خُرج هزائمي الذي أحملهُ على ظهري أينما حللتُ.

بالكاد عرفتها، كانتْ مجردَ فتاةٍ جميلة، رأتها أمي في مناسبةٍ عائليةٍ فأشارتْ لي عليها، متمنيةً أن تكون من نصيبي، ولأنها كانت جميلةً ومتعلمةً ولأسبابٍ كثيرةٍ أخرى تستندُ كلها إلى العقل والمنطق، أعطيت أمي الضوءَ الأخضرَ لتطلبها من أهلها

لتكون زوجةً لي، تمت الموافقة، وبذات الآلية التي تزوجَ بها أبي وجدي من قبله، تمّ إقتراني بها؛ ولأن العوائلَ الموصليةَ تفرضُ أن يتم عقد القران بشكلٍ شرعي و قانوني قبل أن يجمع اي لقاءٍ بين المخطوبين، وفقتُ أمامَ القاضي وقلت :

_قبلتُ زواجك .

لينعقدَ قدري بفتاةٍ كلُ ما أعرفهُ عنها أنها جميلةٌ ومجملُ ما تبادلته معها من حديثٍ كان صباحا خيرٍ ومساءُ نور واحد وثلاثةٌ من (كيفَ حالك ؟)، هذا ما حدثَ بالضبط...

ثم بعد شهرين من الإقتران المقدس بترتْ ساقي وكان ما كان...

سنجار

كانت الأيامُ تمضي كنصل سكينٍ تتقدمُ فيزدادُ جرحي عمقًا، ويتنامى يقيني أنّ خلف الصمت مأساةٌ كبيرةٌ...الدقائقُ والساعاتُ والأيامُ والأسابيعُ كلها تعاونتْ لترسخَ حقيقةَ أنّ غيابَ أخي أمرٌ واقعٌ نعيشهُ يومًا بعد يومٍ، لازمنا أنا وأمي الأملُ بعودته فجأةً، عشنا على ذلك الأمل طويلًا، كنا نودعُ شمسَ كل نهارٍ بالحلم ذاته أن يطرقَ بابنا في جنح الليل ليظهرَ ومعهُ عيالهُ، عاهدتُ نفسي ألا أطالبه بأي تفسير لغيابه، كل ما كنتُ أتنماه هو أن يعودَ، تعلقتُ بأمل عودته رغمَ إنعدام أسباب المنطق متجاهلًا ظلاميةَ الإحتمالات التي تزحفُ يومًا بعدَ يومٍ لتحتلَ المساحةَ الأعظم من تفكيري .

حسمت أمري بعد ذلك أني لا بد أن أقصَ أثرَه...كانت عقيرتي تنضحُ بالصديد، لفتها أمي بضماداتٍ كثيرةٍ، كان نصفُ قلبها يرغبُ في استبقائي، ونصفهُ الآخر يحثني على التعجل في إتمام الرحلة، استأجرت سيارةً وانطلقتُ مع بكرة الصباح، وصلتُ المدرسةَ في وقت الفرصة بين الدروس، المعلماتُ والمديرةُ

المتصابيةُ ومعاونها البشوشُ، الكلُ كانوا مجتمعين حولَ مدفأةٍ (علاء الدين) في غرفة الإدارة، لم يضفْ أحدٌ منهم إلى جعبتي أيّ جديدٍ، لا أحد التقى سلمى وصادق ولا أحدَ يعرفُ عنهما شيئًا، إلا مُعلّمة واحدة أكدت أنَّه كان هناكَ طعامٌ في الثلاجة يومَ وصولها لسكن المعلمات وبعضٍ من حاجات الطفلين، عدا ذلك لم أحصلْ على أية معلومة.

كنت لا أزال أعاني في التنقل مع وجود عكازين، كلُ خطوةٍ كانت معركةً خُضتها ضدَّ الجاذبية وأنظمة التوازن، عند باب المدرسة ناديتُ على صبي يبدو أكبرَ من رفاقه :

_ دلني على بيت بهجت الحاصود.

_ بهجت ماتَ قبل شهرين، احترق بيته ومات هو وزوجته .

_ لا حولّ ولا قوةَ الا بالله العلي العظيم.

كانَ بهجت يعملُ حارساً في ذات المدرسة التي درّس فيها صادق، وحين بدأت الحرب وطُلب اسمهُ لخدمة الإحتياط صادفَ أن سيق هو وصادق للوحدة العسكرية ذاتها، لكنّ بهجت فرّ من العسكرية، وهجرَ القرية وعاش معزولًا في عزبةٍ نائيةٍ في قريةٍ على الحدود.

أخذني الصبي إلى بيت والدة بهجت كنت ابحثُ عن أيّ خيطٍ يدلني على مصير أخي، فذهبت متحججًا بأداء واجب العزاء، وأخيرًا وصلنا بيت السيدة حاصود، كانت سيدةً ضئيلةً بعينين سوداويين ضيقتين وفمٍ بلا أسنانٍ ووجهٍ شاحبٍ حفرتْ السنين آثارها عليه بعمقٍ، بكتْ حين أخبرها الصبي أني كنتُ صديقًا لبهجت وقالت :

_ابني ما مات، الرجلُ الذي احترق ليس ابني، ثم التفتت إليّ، الرجلُ المحترقُ بمثل طولك وابني كان هكذا...
مشيرةً بكفها على أنه بطول الشبر .
لم يدهشني خطابُ السيدة الثكلى، كانت متلازمةُ الأم المنكرة للفجيعة ظاهرةً شائعةً في سنوات الحرب، الكثيرُ من أمهات ضحايا حرب السنوات الثمان أنكرنَ أنّ الجثامين التي ووريت الثرى كانت لأولادهنّ.
لم تضفْ لي رحلةُ سنجار سوى الحيرة و المزيد من الصديد المتسرب من جرحي وليلتين أمضيتهما أهذي تحتَ نير حمى لا ترحمُ، قررَ الطبيبُ بعدها أن يفتحَ جرحي ويعيدَ تنظيفهُ استعداداً لتركيب طرف إصصناعي .
المزيدُ من الألم، والمزيدُ من المرار، كنت أحجلُ في غياب أخي لا من ساقي التي عقرتها نيرانُ الحرب، بل من غيابه الملغز الذي أثقل روحي كعصفورٍ بلله المطر فتركه عاجزًا عن الطيران.
كانت الدقائقُ تمضي لتقتلني حينَ يموتُ أملي في عودته مع صغاره و زوجته، حزني على غياب أخي، والحيرةُ التي شوشت عقلي العاجزَ عن فهم سببَ اختفاءه المفاجئ و آلام الروح والجسد التي كابدتها إثر إصابتي وملاحقة رجال الأمن واستدعائهم المتكرر واستجوابهم لي بحجة الوقوف على أسباب اختفاء صادق وعائلته، واحتمال أن يكون قد هربَ خارجَ الوطن في هذا الظرف الصعب التي تمرُ به البلاد، كل هذا عانيته لوحدي .

وَصةُ شَعرٍ جديدةٍ

نيسان ١٩٨٧

صار الأرقُ زائرًا دائمًا لليالِيّ التي تلتْ ليلة الجديلة، غشيَ الألمُ روحي فضلًا عن اوجاع جسدي... الكدماتُ والسحوجُ في كل مكانٍ، شعريَ القبيحُ المتناثرُ حولَ وجهي الشاحب، كنت أبدو كشجرةٍ مسنةٍ تسلقها دغلٌ ضارٌ.

تورّمَ ذراعي الأيمنُ وآلمني بشدةٍ، إرتأى علاء أني أحتاج طبيبًا، فرفضت إمي بشدة قائلة :

_ماذا سيظنُ الناس ؟ لماذا أبرحها أباها ضرباً؟

_هل ستتركينَ البنتَ تتعفنُ ألمًا ؟

_ لن تتعفنَ، لكنت تعفنتُ أنا قبلها، بنيّ الناس يعتقدون أنّ العنف ضد النساء لا يحصلُ الّا لغسل العار .

اتسعتْ عينا علاء ولم يجدْ ما يقول، خرج بعدها بقليلٍ، وعادَ يحملُ بعضَ الأدوية والمسكنات.

أيقنتُ ذلك اليوم إنّ أبي ليس المذنبَ الوحيدَ هٰهنا ، إن كان أبي يصيرُ وحشًا حين تُغيّبُ الخمرُ عقلهُ فأمي تتواطأ مع فضائعه وعاهات المجتمع وهي بكامل وعيها.

تطلّبَ شفائي من الكدمات الظاهرة مدةً طويلةً أمضيتها منعزلةً في غرفتي، لا أنزلُ إلى الطابق الأرضي إلّا لمامًا، فقدتُ الكثير من وزني وشحبَ لوني، الشيءُ الوحيدُ غيرُ المكترث لما أعانيه كان شعري الذي نما بسرعةٍ ليصلَ إلى منتصف المسافة بينَ شحمة أذني وكتفي، رتبتهُ بالمقص وخرجتُ ذات مساءٍ إلى أقرب كوافيرة نساءٍ، اخترتُ أقصرَ قصة شعرٍ دارجةٍ في ذلك الحين .

عدتُ بعدها وأنا أشعرُ بتحسنٍ كبيرٍ، ها قد تخففتُ من أولى آثار النكبة، كانت ذراعي لا تزال تؤلمني، عزمتُ على الخروج من هذا القمقم قريبًا فلنْ يطولَ مكوثي تحتَ رحمة الشيطان .

وفي المساء ذاته طرقَ علاءٌ بابَ غرفتي، شهق متفاجئً من إطلالتي الجديدة، كنت أعلمُ أنّ لديه الكثيرَ من المواعظ ليسكبها في أذنيَّ، تركته يتكلمُ و شردتُ في عالمٍ أخططُ أن أكونَ فيه قريباً .

لم أخبرهُ أني لا أومنُ بالمغفرة ولاأُجيدُ التماس الأعذار، ولاطاقةَ لي لأضعَ نفسي في محل الجلّاد، أنا بالكاد أغفرُ لنفسي وأشغلُ مكاني، وخيالي لا يتسع لأكونَ مكان أحد غيري.

وحين أصابني الملل قطعت حديثه، وطلبت أن نُرجئ الخوضَ في موضوع فتح صفحةٍ جديدةٍ ونسيان ماكان لمناسبةٍ أخرى .

كنتُ موقنةً بأن العالم أكبر من مخاوف أمي ومثاليات علاء، كان كلّ ما يشغلني هو كيفَ سأكسرُ الطوقَ وأمنحُ روحي الحبيسةَ صكَّ حريتها.

بعدَ أسبوعٍ من ذلك التأريخ كانت ذراعي بحالٍ أفضل وكدماتي اختفت بالفعل وصرتُ معتادةً على قصة شَعري الجديدة، صحوتُ باكرًا وذهبتُ الى الجامعةَ للشروع بإجراءات للتعيين .

العملُ أولًا...

العملُ هو خطوتي الأولى لإبطال اللعنة وكسر التعويذة.

كانَ عليّ بحسبَ القانون العراقي أن أعمل ممرضةً لستة أشهرٍ قبلَ أن أباشرَ عملي في أيّة دائرةٍ حكوميةٍ، سأفعل المستحيلَ لأنالَ فرصةً لعيش أفضلَ .

بتُّ ليلتي والليال التي أعقبتها في غرفةٍ كبيرةٍ يحتلُ جدارها الشرقيَ شباكٌ منخفضٌ تحرسهُ كتائبٌ حديديةٌ، وحاجزٌ مشبكٌ، وتجللهُ ستارةٌ داكنةٌ. نزلاء الدار السبعة ينامون هنا خمسةُ أطفالٍ ورضيعين، يفترشون مراتبًا إسفنجيةً مُدَّت فوقَ حصير يبدو بحالةٍ جيدةٍ، ويلتحفونَ بطانياتٍ بشراريبٍ كان استخدامها دارجًا في ذلك الزمن، كانت هنالك فتاةٌ كبيرةٌ ينادونها(سْويسة) تنظرُ لباقي الأيتام بعيونٍ غاضبةٍ، بدا أنها القائدة هنا.

أوينا إلى فرُشنا وانشغلت سويسة بإعداد رضعةَ حليبٍ لكلٍ من الصغيرين بزجاجتي رضاعةٍ قذرتين، حليبٌ مجففٌ وماء صنبورٍ بحرارة الغرفة!

تعلقٍ الأولُ بالرضّاعة وبدأ يشفطُ بنهمٍ، وغابَ الآخرُ في نوبة بكاءٍ، فغضبتْ سويسة...

كان الطفلُ بحاجة إلى تغيير خضائنه، رائحة قذارته كانت تملأ المكان، حملته سويسة من مهده محاولةً إسكاته و حين اكتشفت أنه متسخ صفعته، وراحت تصرخ وتولول، شهَقَ الرضيعُ شهقةً لم يعقبها زفير ثم عمّ صمتٌ مخيفٌ لثوانٍ بدت لا نهائيةً، اقتربتُ لألقي نظرةً أسوةً بصبيين كانا في عمري، أحدهما لحيمٌ بشوش بوجه بيضوي، وآخرُ نحيل يعلّق في عنقه مصيدةَ عصافيرٍ، كانتْ شفتا الرضيع مزرقتين ترتجفان... وبعد برهة ترقبٍ زفرَ النفسَ ليصرخُ أعلى وأعلى، شعرت سويسة بالتورط وبدأت بتغيير ملابس الصغير المسكين، وحضينته التي لم تكن سوى خرقةٍ باليةٍ أقذرُ من

أرضية مرحاضٍ عمومي، كان الرضيع يبكي ويبكي وقد ظهرت على خده الأيسرَ علامةٌ...

اندفع بابُ الغرفة، إنها السيدةُ الطيبةُ مديرةُ الدار بثوبها الأسود ونونةُ الوشم على ذقنها.

تساءلت :

_ ماذا هناك ، لماذا يبكي خليل هكذا؟

أجابت سويسة متلعثمةً:

_لا أدري.

وثبَ الصبيُ البدين مطلقًا الرياحَ وقالَ :

_ لقد ضربتهُ؛ لأنه متسخٌ، رأيتها تضربهُ وتصرخُ بوجهه.

تقدمت (قسمة) التي من المفترض أن تكون مربيةَ الأيتام والمسؤولة عن رعايتنا، جذبت سويسة من شعرها وأرجحت رأسها إلى الأمام والخلف جيئةً وذهابًا فأوقفتها مديرةُ الدار التي يناديها الجميعُ(ماما خديجة) وأبعدتها عن البنت قائلة:

_ حاسبي نفسك بدلَ معاقبة البنت، أليس الإهتمامُ بالأطفال مسؤوليتك التي تقبضين عليها راتبًا أولَ كل شهرٍ؟

أحنت (قسمة الدُبّة) (كما يلقبها الاولاد) رأسها وخضعتْ لأمر ماما خديجة.

أردفت ماما خديجة :

_خذي المهدَ إلى غرفتك، وبدلي ثيابَ الصغير، نظفيه أولاً، سينامُ الرضيعان في غرفتك منذ اليوم .

ثم التفتت إلى سويسة وقالت :

_ حسابك عندي بعدين .

تفرق الجمع وعادَ كلٌ إلى فراشه، استلقى ريحان مستأنفًا فعاليةَ إطلاق الرياح التي استهلَ بها أمسيتهُ، كنت لا أزال يقظة حين صرخَ أحدُ الصغار :

_ آي

رفعتُ بصري لأجدَ سويسة تحبو مسرعةً؛ لتعود إلى فراشها الكائن تحت الشباك، وبعد دقائق من السكون تسللتْ كالقطة نحو فراش ريحان وما أن استقرتْ عنده، حتى صرخَ من جديد:

_آآخ

وعادتْ ثانيةً بسرعة البرق والتفتْ ببطانيتها كأنّ شيئًا لم يكن ...وهكذا غزتْ فراشَ ريحان بضعَ مراتٍ حتى داهمني الكرى .

فتحتُ عينيّ لأجدَ نفسي نائمةً على كومة القش في حظيرة البقرة في منزل السيدة عصبية في شمال غربي البلاد، دعكت عيني فرأيتُ أمي وأبي داخل الحظيرة وزياد يلعبُ على بعد بضع خطواتٍ، وضعت أمي شيئًا على الأرض، نهضت من على القش، إقتربت، إنها كعكة عيد ميلاد، قالت أمي :

_ عيدٌ ميلادٍ سعيد حبيبتي.

تقدّم فيلقٌ من النمل صوبَ الكعكة بحثَ أبي عن علبة كبريت ليوقدَ شموع الإحتفال، إتقَدتْ علبةَ الثقاب من تلقاء نفسها ما إن أخرجها من جيبه، لسعتْ النار بنانهُ، فنفضَ كفهُ مُلقيًا علبةَ الكبريت بلهيبها على كومة القش؛ لتندلعَ النارُ في الحظيرة، تعالتْ السنةُ اللهب ملتهمة كلَّ شيءٍ، إنهارتْ أعمدة السقف ووالداي غيرُ مكترثان، أبي يغني وأمي تصفق والنملُ يسرحُ في الكعكة وأنا أصرخُ :

_ نار.. نار.. لكن صوتي لا يخرجُ أصرخُ وأصرخُ حتى ينشقَّ حلقي .

فتحتُ عينيّ كنت متعرقةً ومنهكةً وأرتجفُ في فراشي في غرفة مبيت الأيتام في دار الأمل، قسمة واقفةً إلى جواري وخليلُ الصغير على كتفها، وماما خديجة تضمني إليها تبسملُ وتوحّدُ الله...غادرتْ بعدما استقرّ وضعي بعد ان أوصت قسمة بتفقدي كل ساعةٍ.

أكملتُ ما تبقى من الليل جالسةً في فراشي خشيتُ أن يغويني النومُ من جديد فيجُرّني إلى كابوسٍ أبشعَ.

في الصباح كُنا لا نزال في غرفة المبيت حين اشتكى ريحان لماما خديجة من شيءٍ وخزَ مؤخرته وهو نائمٌ معتقدًا أنّ في الغرفة ثعبانٌ، كشفتْ ماما خديجة عن عجيزة الصبي هكذا تحتَ أنظار الجميع ودونَ أيّ استتار، أشحت بناظري بعيدًا عن عريّ الصبي، نادتْ ماما خديجة :

_ سويسة.. سويسة ، تعالي.

أقبلت سويسةُ، وقد علا شحوبُ الموت سحنتها ،كانَ وجهُها أبيضًا كالكفن وصوتها يرتجفُ:

_نعم ماما.

عاجلتها ماما خديجة بالقول :

_ نعّم الله عظامك ...هاتي الإبرة.

_أيّة إبرة؟

_ هات الإبرة بنت ال.....

أخرجتْ سويسةُ من طيات ثيابها إبرةً كبيرةً كالتي تُستخدم في خياطة المفروشات، تناولتها ماما خديجة وأمرتْ سويسة بالمغادرة نحو الصالة حيث سيُقدمُ الفطورُ بعدَ قليلٍ،

انصرفَ الأولاد واحدًا تلوَ الآخر، أمسكتْ ماما خديجة بيدي، ومشينا إلى الصالة جلستْ على كرسي يترأسُ الطاولةَ، وجلستُ أنا على الكرسي الأقرب إليها.

_ ما اسمك؟

_ لا إجابة

_ أين ماما وبابا؟

_صمت من طرفي

_من أوصلك إلى هنا؟

لا شيء من مرةً أخرى

أردتُ أن أحكيَ لها كلَّ ما حدثَ، لكنّ صوتي لم يطاوعني، كانت الكلماتُ تترددُ في صدري لترتطمُ بحاجزٍ صخريٍ عملاقٍ دونَ أن يخرجَ صوتي أوأنبسَ بحرفٍ، نكسّتُ رأسي هربًا من عينيّ السيدة الطيبة التي همست بحنوٍ:

_ ممَّ انت خائفة؟

نظرتُ في عينيها متوسلةً إياها أن تتوقفَ عن طرح الأسئلة، وتتركني أعيشُ نهاري قبلَ أن يأتيَ الليلُ وكوابيسهُ.

جاءت قسمة ومعها فتاة قروية يحملن الإفطار الذي كان من البيضُ المسلوق وخبز التنور تناولتُ قطعةَ خبزٍ، ورحت أمضغ فطوري قشرتْ ماما خديجة لي بيضةً، وسكبت لي الفتاةُ القرويةُ كوبًا من الحليب، غمستُ الخبز بالحليب وأكلتُ بنهمٍ حتى امتلأت معدتي للمرة الأولى بعد عشاء بيت جدتي ذاك الذي سبق الفاجعة.

بعد الإفطار أخذتني قسمةُ وحممتني، وألبستني ثيابًا جديدةً تشبهُ ثيابَ باقي الإيتام، مشطتْ سويسة شعري كما أمرتها

ماما خديجة، جلستُ بعدها مع الأطفال المتحلقين حول المدفأة في بهو الدار...وهكذا انقضى اليوم دونما احداثٍ تذكرُ.

شرشور وزعبور

في الصباح التالي طلبتْ ماما خديجة من سويسة أن تأخذني في جولةٍ إلى البستان؛ لأروّحَ عن نفسي، وأتعرّفَ على المكان. كنا في الدار ثلاث بنات أنا و سويسة وفتاةٌ ضئلية ببشرة داكنة تدعى كلثوم، تُشبه كلثوم شخصية (زعبور) صديق (شرشور) في المسلسل الكرتوني (غابةُ الأصدقاء)، تُعينُ كلثوم سويسة على مؤامراتها وتنفذُ مخططاتها الشريرة دون جدالٍ...مشينا تتقدمنا سويسة صامتة، وما إن غبنا عن مرأى ماما خديجة حتى تخلفت البنتان عني ببضع خطوات كانت كلثوم تدورُ حولَ سويسة كحارسٍ مطيع، تهامستا ثم بدأتْ الاخيرة بكيل الشتائم لماما خديجة، كانت تشتمُ وتومئ بكفيها فيتشنج إصبعها الأوسط دونًا عن إخوته، هذرت بكلماتٍ ونعوتٍ كنت أسمعها للمرة الأولى، وحين لحظتْ تحديقي الأبله فيها دفعتني بعنف حتى كدت أكبو على وجهي وقالت :

_فيمَ تحملقين أيتها الحمقاء.

أخرجت دبوسًا من عروة ثوبها وأشارت لي قائلةً :

_أترين هذا؟ سأفقأ عينيك به، لتصبحي خرساءً وعمياءً...أغربي عن وجهي هيا من أنت لأنزّهك وأعرفك على المكان؟

مشيتُ مبتعدةً وهي تصرخُ فيّ لأبتعدَ أكثرَ في عمق البستان...كان البستانُ بكبر قريةٍ صغيرةٍ يتوهُ المرءُ فيه بيسرٍ، لا وجودَ لأيّ علامةٍ أستدلُ بها عند العودة...غابةُ نخيلٍ

تستظلها أشجارُ فاكهةٍ بعضها نفضتْ أوراقها بفعل هواء الشتاء القارص وأخرى لا تزالُ تزدانُ بخضرتها...

توغلتُ في الغابة تحذوني شتائمُ سويسة ودبوسُها إلى مزيد من الابتعاد، ثم توقفتُ حين اختفى صوتها...كانت الشمس تبُثُ دفئها رغم برودة النسيم، لعبتْ غيمتان لعبةَ المطاردة، تدفعهما النسائمُ الباردةُ لمزيد من المرح، تقدمت غيمةٌ كبيرةٌ وغطت قرص الشمس، لحقتْ بها سحابةٌ ثانيةٌ وثالثةٌ ورابعة فاحتجب ضياءُ الشمس بالكامل وسادَ الغابةَ ظلٌ كئيبٌ ولسعةُ بردٍ، نظرتُ إلى السماء أبحثُ عن فرجة ضوءٍ فلم أجدْ، خمنتُ أنّ مزنةً عظيمةً في طريقها إلى الهطول، نهش البردُ جسدي فتذكرتُ أني نسيت السترة في فراشي، كنتُ ارتجفُ كورقةٍ بوجه الريح، لا أدري ماذا أفعلُ؟ وكيف أعودُ إلى الدار؟ حاولتُ الصراخَ طلبًا للنجدة، لكنّ صوتي خذلني من جديدٍ، فأذعنت لضعفي، وأسندتُ جسدي المتعب إلى كومة حطبٍ عند طرمبة ماءٍ تشبهُ التي كنا نراها في افلام كرتون، جلستُ أنتظرُ أن تنظرَ السماء في أمري، وبعد فسحةٍ من التأمل الحزين، أجفلتني قطرة مطر كبيرةٍ سقطت على يدي، فزعَ قطٌ رماديٌ كان يغفو على جذع شجرةٍ عند البئر، نفض فراءه بنزقٍ وفرَّ هاربًا من دموعُ السماء التي تلاحقت لتبللهُ بسرعةٍ لم يتوقعها.

علتْ زقزقةُ العصافير المحتشدة على أفنان شجرة زيتونٍ قريبةٍ، وقبل أن يشتدّ وابلُ المطر حلّق سربُ العصافير مبتعدًا ليحتمي في ثغور جدارٍ قريبٍ، لمعَ البرقُ فعددتُ حتى العشرةَ، وقبل أن أقولَ أحدَ عشرَ، أرعدت السماءُ فارتعدتُ رهبةً وخوفًا وبردًا.

نظرتُ لحالي أركض وسط جذوع النخيل، مبتلة الثياب مزرقةَ الانامل والماء يقطرُ من شعري والوحل يلطخُ ثيابي، هدّني اليأس وانحدرت دموعي شاكيةً للغيوم وقطرات المطر ما أنا فيه، لذتُ تحت أغصان شجرةٍ، كان المطرُ أشدّ من أن تصدّه أوراقها، لخص وقوفي تحت تلك الشجرة علاقتي بمن أحبوني، كلٌ يحاولُ حمايتي ولا يفلح...الشابُ الطيبُ في القرية حاولَ مساعدتي لكنه عجز، أبي وأمي تمنيا لي حياةً أفضلَ وها أنا نزيلةٌ في دار أيتام، ماما خديجة أرادت لي أن أتنزه لأروّحَ عن نفسي المتعبة فضعتُ في بستانٍ كبيرٍ يشبهُ غابةً موحشةً تتقافزُ فيها قطراتُ المطر كجنيّاتٍ في حفلة رقص، وتتهامسُ العصافير لإعداد خطةٍ للإحتماء من صيب السماء، يلمعُ البرقُ ويزمجرُ الرعدُ وتهربُ القططُ ...وأنا ههنا أنتظرُ أن يفطن أحدٌ لغيابي وبعد ساعةٍ أو أقل انحسرتْ الغيومُ وخفّ المطرُ، سمعتُ خفقَ أقدامٍ تجري في بركة ماءٍ، ثم نداء :

_ يا بنت ... يا بنت .

رجلٍ ينادي ثم إمرأة ،اقترب الطيفان فرأيت سيدةً بعباءة إنها فتاةُ الحليب التي أحضرت لنا الإفطار هذا الصباح، ومعها السائق يحمل مظلة، أخذاني الى الدار، كنت مبللةً وأسناني تصطكُ من البرد.

عند باب البيت كانت ماما خديجة وقسمة تنتظران ،وسويسة تقف في الزاوية كمتهم ماثل أمام هيئة محلفين.

دخلنا يتبعنا حشدُ سكان الميتم مع الفتاة المذنبة، أمرتْ ماما خديجة قسمةَ أن تجلب لي ثيابًا جديدةً، فهرعتْ لتنفيذ الأمر،عادت تحمل طقمًا جديدًا بلونٍ بني تزينه دوائرٌ بيضاءٌ ومنشفةٌ وبطانيةٌ ناعمةٌ هذه المرة، نشفتني قسمة وبدلتْ

ثيابي دون أن تفردَ وجهها المتجهم ثم عقصت شعري بمحرمة قطنيةٍ مثلثةٍ، تعبق برائحة ماما خديجة...وبعد قليلٍ بدأت المحاكمة.

قالت لي السيدةُ الحنونُ مستعينةً على كل كلمةٍ بإشارة خرقاء، ظنًا منها أني صمّاء:

_ ماذا فعلتْ بك بنت الكلب أخبريني؟

رجوتها بعينيّ أن تُوقفَ الإستجواب؛ فاذعنت حينما لمحت الدموع تلمع في عينيّ بعدما رمت سويسة بنظرة وعيد قاسية .

قررت السيدةّ الطيبةُ منحي اسم "قطر الندى" ريثما يُعرف اسمي، لكنّ أحدًا غيرها لم ينادني به، الجميع كانوا ينادونني نار، نسبةً للصرخات التي أطلقها في كوابيسي :

_ نار... نار

وهكذا حصلت على اسمين غيرَ اسمي ،

اسمين متناقضين لكن الغلبةَ حتمًا للنار؛ فقطرات الندى رغم عذوبتها لا تخمدُ حريقًا .

سهرتْ ماما خديجة ليلتها تلك في غرفتنا حتى وقتٍ متأخرٍ؛ فقد دهمتني الحمّى ما إن حلّ الظلام، بقيتْ جنبي تمارضني، لا أدري كم مضى من الليل حين انخفضت حرارتي وتوقف هذياني، عندها حملت لها قسمة علبة دواء تناولت حبتين ازدردتهما دونَ الحاجة إلى شربة ماءٍ، ثم غادرت بعدما دهمها النعاس، خرجتْ تجرجر نفسها إلى غرفتها في الطابق العلوي، سمعتها تقول لقسمة :

_ خلفَ هذه الطفلةُ قصةٌ كبيرةٌ...

تلاشى صوتها الدافئ في زوايا البيت الباردة...كانت سويسة تتململ في منامها لا تزال يقظة بإنتظار لحظة تنفيذ الخطة التي أملاها عليها عقلها المريض.

الثيابُ الجديدةُ، البطانيةُ الناعمةُ وربطةُ الرأس المعطرة بمسك وحناء ماما خديجة، كلها كانت تبشرُ بليلة سعيدة، لكن للواقع كلمةٌ أخرى ...

إنه ثوبُ الدانتيل الذي لبستهُ في حفل خطوبة عمي أمين، اللآلى التي حذرتني أمي من اقتلاعها تزين حوافَ الثوب، وقلادةُ جدتي الذهبية تتدلى على صدري وعليها اسمنا، مسجلُ السيارة يصدحُ بصوت عارف محسن :

_(زعلان الاسمر ما يگلي مرحبا).

ماما على المقعد الأمامي تُرَقّص زيادًا على انغام الموسيقى، وزيادٌ يضحك، اندمجتُ في مزاج عائلتي المرح وبدأتُ بالتصفيق، ثم فجأةً انبثقتْ شرارةُ نارَ من لوحة القيادة، شرارةٌ صغيرة كبرت بسرعةٍ، حاولَ أبي إطفائها بيديه لكن شعلةَ النار اتسعتْ لتلتهم مقدمة السيارة فصرخ أبي :

_ آسيا... زياد.. نار... نار

شعرت بوخزة مؤلمة في كتفي، كأنّ إبرةً تخترق جسدي، فتحتُ عينيّ، طيفٌ تحرك في الظلام، ثم إندّس في فراشٍ عند الشباك!

ظنت سويسة أنها قضّت مضجعي بدبوسها، لكنها لم تدرك أنّ كلّ وخزةٍ أجهضت كابوسًا، وأنّ وخزةً من إبرةٍ لا تعني شيئًا في معجم آلآمي. داوم دبوس سويسة تلك الليلة على وخزي كلما غلبني النعاس...حتى بزغ ضياء الفجر، فنامتْ ونمتُ بعمق دون كوابيسٍ، كأنّ كوابيسي تخشى الضياء... صحوتُ على

ركلات تكاد تمزق خاصرتي إنها سويسة تركلني بكل ما لديها من قوة وتقول :

_ استيقظي كفاك من نوم العرائس.

قمتُ متوجعةً من جنبي الذي آذته تلك الفتاة المسمومة، الأفطار على الطاولة، الأولاد يأكلون وريحان يشاكس كلثوم قائلًا:

_ كلثوم تأكل ثوم .

_ ريحان الدُب.

_ كلثومة الزرگة .

تقدمت قسمة لتعطيَ صفعة على خدٍ كلَّ منهما، عمَّ صمت مؤقت بعد ذلك، قبلَ أن يعودا لمشاكسة بعضهما من جديدٍ.

_أين ماما خديجة ؟

هكذا قلت لنفسي حين سحبت قسمة كرسي مديرة الدار، وطلبت من فتاة الحليب كوبًا من الشاي .

علمتُ أنها تخرج صباحَ كل خميسٍ لزيارة قبر ولدها الشهيد ولا تعودُ إلا بعد انتهاء النهار...

قضيتُ يومي أدورُ حول قسمة خشيةَ الإبتعاد عن دائرة الأمان، لا أحدَ يستطيعُ التكهنَ بما قد تفعله تلك المجرمةُ سويسة، لا أظنها تمانع من إلقائي في البئر بكل برودة دمٍ...

لا وجودَ لأي نشاطات قد أمارسها هنا في دار الأيتام، كان البقيةُ يلعبون لعبةَ المطاردة ولعبة السباق، سويسة تغزل بمغزلين وتتابع نوم الصغيرين في مهديهما بين فينةَ وأخرى، وترميني بنظرة حقد صفراء كلما سنحت لها الفرصة.

مكثت قرب طاولة مديرة الدار التي تشغلها قسمة في غياب ماما خديجة، أمضيت وقتي بين تقديم بعض الخدمات

كإحضار الماء، أوإيصال كوب الماء الفارغ إلى المطبخ، والتطلع من نافذة الصالة المطلة على المدخل الشمالي للبستان.

زارت الميتمُ ذلك اليومَ سيدةٌ نحيلةٌ طويلةُ القامة بشكلٍ ملفت، طويلةٌ لدرجة أنها تنحني عند تبادل التحيةٍ مع نساءٍ أخريات، لوجهها عظامٌ بارزةٌ وأنفٌ طويلٌ معقوفٌ يشبهُ أنوفَ الساحرات في الحكايات الخرافية وفمٌ واسعٌ يخلو إلّا من سنٍ واحدٍ عند زاوية فمها اليمنى، وعلى حاجبها الأيسر خال كبير يحملُ بضعَ شعيراتٍ ينتصبنَ كعلامات تعجبٍ.

جلست السيدة جوار قسمة وبدأتا بالثرثرة، قالت بدرية (الضيفة) إنها صديقة ماما خديجة منذ أيام الصبا، تكلمتا عن إبن ماما خديجة (ابراهيم)، استشهد في مقتبل الحرب، بعد أسابيعٍ قليلة من زفافه، وإن دار الأيتام هذه كانت منزلًا ورثته خديجة عن أبيها الحاج محمّد، وحَكَت بدرية عن رجلٌ عاد ذات ليلةٍ من الجبهة ليجد غريبًا في فراش زوجته، فقتل الزوجةَ وعشيقها، وفي الصباح التالي نُقل إلى مستشفى المجانين إثر جنون مسّه، خلّف الأب المختل والام المغدورةُ صبيًّا وفتاة كانا سوسن المُلقّبة بسويسة وريحان، تعهدت ماما خديجة برعايتها في هذا البيت، فكرتُ:

_ ريحان الفقير شقيقُ سويسة الشريرة!

أما كلثوم فقد ألقاها جدها في المأوى بعد أن استشهد أبوها وتزوجت أمها، وقبل بضعة شهور عُثر على التوأمين خليل وإبراهيم تحت عريشة عنبٍ في جنب قصي من البستان.

لم تأت بدرية على ذكر حكاية فتى المقلاع.

كانت تلك القصصُ المقتضبةُ أغلفة حكايات الأيتام الذين يظلهم سقفُ هذه الدارُ، ولا شكَّ أن القصصَ الحقيقيةَ

تحمل الكثيرَ الكثيرَ من التفاصيل المسكوت عنها جهلًا أو تجاهلًا.

توقفتْ السيدتان عن سرد حكايات الميتم، وبدأت بدرية تحدثُ قسمة عن رجلٍ يريدُ أن يتقدم لخطبتها، كانت تلك أول مرة أرى فيها إبتسامة قسمة الدبّة، انفرجت أساريرها وشعَّ بريقٌ دافئٌ من عينيها الضيقتين وقالت:

_ صعبٌ يا خالة، وماذا عن زوجتيه الأخريين؟

فأجابت بدرية :

_ يعدلُ بينكم بشرع الله .

فأجابت قسمةٌ على استحياء :

_ أحتاج وقتًا للتفكير.

كذّابةٌ!

ليتني استطعتُ الكلامَ ساعتها .

كانت عيناها تشيان بفرحة قلبها الراقص على أنغام خبرية العريس ذي الزوجتين .

غرقت الشمسُ في الأفق المصطبغ بحمرة الشفق حينها ظهرت السيارةُ الخضراءُ تقلُّ ماما خديجة عائدةً إلى الدار، كانت عيناها متورمتان كمن بكا كثيراً وتبدو منهكة، ألقت التحيةَ على صديقتها، ثم جلست لدقائق قبل أن تنصرفَ إلى غرفتها، ربتتْ على رأسي أثناء مرورها ولم تسأل عن حال الرضيعين كما اعتادت، مضت تجرجر ساقيها دون أن تلتفت لشيءٍ، وحين ابتعد وقع خطاها على السلالم عادت كل من قسمة وبدرية إلى مجلسهما، لتكون ماما خديجة محور حديثهما هذه المرة.

استأنفت بدرية الحديث :

_كانت خديجةٌ زينةَ بنات القرية، لم ترَ قريتنا أجملَ ولا أترَفَ منها، خطبها أبناء الشيوخ وعليةُ القوم، لكنها كانت تحبُ إبن خالتها الشابُ البغدادي المتمدنُ، رفض ابوها تزويجها له بادئ الأمر، فوسّط الشاب المتيّم وجوهَ العشائر وأعيانَ البلد وأصحابَ النفوذ، ضمّ الوفد الذي جاء ليطلب يد خديجة خمسين رجلًا، آغوات بثياب كردية، ورجالٌ بثياب وعباءات عربية، رجالُ دين بعماماتٍ بيضاء وأخرى سوداء كوفياتٌ بنقوشٍ حمراء وأخرى سوداء...

وافق الحاج محمد أخيرًا، وزُفّت العروسُ، كانت أولَ عروسٍ في بلدتنا تُزف بسيارة، تعجب أهل القرية من ثوبها الأبيض (اللماعي) والوشاح الذي أحاطها كهالة القمر الورود المنسدلة منه والمنحدرة مع ظفائرها والحمرة التي زينت شفاهها والكحل الذي رسم عينيها.

كانت خديجة عروسًا أسطوريةً تشبه الجميلات اللاتي سمعنا عنهنَ في حكايات جداتنا...

وبعد عامين أوأكثر عادت خديجة إلى بيت أبيها يسربلها السواد تدفع بطنها المتكور أمامها وتأخذ بكف إبراهيم الذي كان بالكاد يخطو خطوة ويقع في الثانية..

قُتل زوجها، أرداه قاطع طريق كمنَ له في مكانٍ ما في أطراف بغداد، قتلهُ ورماهُ على الطريق بعد أن سلبه كل ما بحوزته من مال وخاتم الزواج، دارت الأحاديث أنّ الخالة طردتها بعد انقضاء العزاء، لم يكترثْ الحاج محمّد لافعال الخالة، وظل يحيط بنته وسبطه بحبه وحنانه وحين وُلد خليل،...لم تظهر الخالة في الجوار، ولم تسأل عن أحفادها ..

تجاهلَ الحاج محمد أفعال أخت زوجته، وقبل أن يُتم الصغيرُ عامهُ الأولَ كانَ قد نقلَ كلَ ممتلكاته باسم خديجة إبنته الوحيدة.

يومَ اندلعت الحرب كان الولدان في الجامعة وما أن تخرج إبراهيم حتى طُلب لخدمة العلم، والأم تنتظر أن تنتهي الحرب...شهر شهران ثم طُلب خليل هو الآخر للجندية.

طالت الحرب، بدت كأنها أبدية لا تنتهي، قررتْ خديجة أن تزوج ولدها البكر، فخطبتْ له بنتًا من بنات عمومتهما، وتمّ العرس...وبعد أسبوع التحق إبراهيم بوحدته في الجبهة كما هو مُفترض...

وبعد شهر وصل جثمان ابراهيم... وفي الصباح التالي جاء خبرُ فَقد خليل، تحطمت خديجة بالكامل، مشت بين الناس كمَيتٍ على قيد الحياة، لدرجة أنها حاولت الانتحار،عادت لها الحياةُ من خلال هؤلاء الأيتام المساكين...

جذبت بدرية حسرة عميقة قبل أن تُطرقَ وتتوقفَ عن الحكي.

كان موعدُ العشاء قد حان تناولتُ عشائي وانصرفت إلى فراشي لا أعرف أيهما أخافُ كوابيسي أم دبابيس سويسة!

مرتْ عدةُ أيامٍ وسويسة ترتدي سترتي الصوفية الفضفاضة هديتي من السيدة الطيبة جارة ساقية الماء، منذ اليوم الذي ضعت فيه في البستان، كانت تنظرُ لي شزرًا كلما نظرتُ إليها وهي ترتدي السترة .

وذات ليلة لا أدري ماذا دهاني ؟ وما القوةُ التي تصورتُ نفسي عليها؟ قررتُ في لحظة أن أسترجع سترتي من تلك السلّابة الشريرة...انتظرت حتى نامت كان من عادتها أن تترك السترة

عند وسادتها قبل أن تخلُدَ للنوم، تظاهرتُ أني نائمة وحين غطتْ سويسة في نومها تسللتُ وتناولتُ سترتي وعدت بكل هدوءٍ إلى فراشي، لم تزرني الكوابيس ليلتها، أظنها هربتْ من نشوة انتصاري الصغير، استيقظت في الصباح التالي قبل الجميع وارتديتُ السترةَ ويممتُ صوب قاعة الطعام، كنت عند الباب حين شدتني قوةٌ أجهلها إلى الخلف، التفتُّ ورائي إنها سويسة تسحبني وقبل أن يختلَّ توازني باغتتني بصفعةٍ قويةٍ، هويت بكل ثقلي ليرتطمَ جبيني بحافة الباب الحديدي، زاغَ بصري ومادت الارض بي، ثم سقطت على الأرض ...

ضجيجٌ ووقعُ أقدامٍ...وصوتُ صفعةٍ وماما خديجة تشتمُ، غابت حواسي بعدها وأغميَ عليّ، حين أفقتُ كنت في فراشي ورائحةُ مطهرُ الجروح تزكمُ أنفي، رأسي معصوب، وماما خديجة تبتسمُ بوجهي وتقول:

_ جرحُ بسيطٌ لا تخافي.

وبعد دقائقَ اخذتني ماما خديجة من يدي وذهبنا إلى غرفة الطعام التفتَ الجميع اليّ حين دخلتُ بالسترة وعصبة الرأس كنتُ كقائدٍ منتصرٍ، لوّحتُ لأصدقائي الأيتام وأشرت لهم بعلامة النصر.

كانت سويسة تقف مرتجفةً إلى جنب بدرية، التي إستُدعيتْ على وجه السرعة لتمتصّ غضب ماما خديجة، جلستُ إلى اقرب كرسي جلبتْ فتاةُ الحليب فطوري، اتخذت ماما خديجة مكانها على رأس الطاولة ونادت على سويسة باسمها هذه المرة :

_ سوسن تعالي.

تقدمت سويسة

فطلبت منها ماما خديجة أن تدنو أكثر كانت سويسة ترتجف وتتقدم بخطوات صغيرةٍ فسحبتها ماما خديجة من شعرها وقالت:

_ سويسة ماذا تريدين، أخبريني بالضبط ما الذي تريدينه؟

_ لا أريد شيئًا صدقيني ماما لقد كانت تغيظني وتشير لي هكذا.

ورفعت إصبعها الأوسط في تلك الحركة الهستيرية التي تسرف في استخدامها حينما تغضب، شدّت ماما خديجة قبضتها على شعر سويسة وقالت :

_تكذبين عليّ يا بنت الكلب!! هذه المسكينة لا تعرف حركاتك هذه يا ملعونة يا بنت ال..... !

تدخلت بدرية لتفك سويسة من يد ماما خديجة قائلةً:

_وحدي الله يا أم إبراهيم، وحدي الله.

_ لا إله إلا الله.

تمتمت ماما خديجة وأفلتت شعر البنت التي أسرعت للإختباء خلف بدرية

أدمعتْ عينا ماما خديجة لمجرد ذكر اسم إبراهيم .

_ زوجيها وإخلصي منها.

_اقسم بالله سأعطيها لأول راعي غنمٍ يدق بابي طالبًا يدها، أقسم بتراب إبراهيم سأزوجها.

أشفقتُ على سويسة التي ستُظلم لو نفذتْ ماما خديجة وعيدها، كيف سيزوجونها وهي بالكاد تتقدم نحو عامها الثالث عشر؟

الغريبُ أن سويسة تغيرتْ بالكامل، صارت لطيفة مع الجميع، وصارت تعتني بتسريح شعرها، وترتدي ثوب العيد مساء كل يوم حين يخرجُ نزلاء الدار لتنشق الهواء النقي وتحرص على

تمرير مروَد الكُحل على أجفانها، وتصبغ خدودها بحمرة أحضرتها لها قسمة من السوق، إتضح أن ما كانت تمر به سويسة، انما هو ثورة الشباب ضد الطفولة، إلّا أنها كانت ثورةً عنيفةً بعض الشيء.

قِيامة

انتهى الشتاء وبدأ دفء الربيع يتسلل إلى أطرافنا، وتزينت أشجارُ الفاكهة ببراعم أوراقها وأزهارها، وتحلّت تيجانُ النخيل بعناقيدٍ خضراءٍ فتيّة، تبسمت حمرةُ شقائق النعمان، ومدتْ أزهار البابونج بساطًا غطى الآفاق. وسط كل هذه البهجة التي عمّت الأرض كانت ماما خديجة تعيش الذكرى السنوية لرحيل إبراهيم العريس الذي غادر خدرعروسه إلى الحرب ولم يعد بعدها .

أيقظتنا قسمة مع خيوط الفجر الأولى، لننضمَ للقافلة، كانت القدور ومواقد الغار وأباريق الشاي العملاقة محملة في سيارة حملٍ جاهزة للإنطلاق. تجهزنا على عجل، قادتنا فتاة الحليب أنا وريحان وصبي المقلاع، ركبنا سيارة النقل مع القدور والأواني وانطلقنا تقودنا سيارة ماما خديجة... توقفنا عند مدخل البلدة.

كانت خيمة كبيرة منصوبة تنتظر وصولنا وعلى بابها لافتةٌ سوداء كتب عليها :

ثواب على روح الشهيد البطل إبراهيم إسماعيل الجميل .

كان العديد من أهالي القرية يقفون بانتظارنا لتبدأ الفعالية التي كنت أجهلها حتى تلك اللحظة، ترجَّل الجميع ونُصب فرنُ الخبز على مقربةٍ من المواقد والقدور وقواري الشاي، بدأت النساء بخبز العجين المجهز منذ الفجر...جُهز الشاي، أعطت

ماما خديجة للصبيين مهمة إيقاف المارة ودعوتهم لتناول الطعام، وطلبتْ مني البقاء على مقربة منها خشية أن أضيع، قُدم الفطور أولًا والذي كان من اللبن الطازج وخبز التنور والشاي العراقي الفاخر، وقبل أن ينتصفَ النهارُ كان الغداء قد نضُج وكان من الرز وحساء اللحم والخبز، كانت دموع ماما خديجة تسيلُ لتختلط بعرقها، تطعمُ هذا وتسقي ذاك، ودموعها تبلل خديها، بينما تدندن أبياتًا شعرية حزينة جهلت معانيها لكنني فهمتُ أنها تقطر حزنًا، استمر مخيمنا في إطعام المارّة حتى غابت الشمس وقبل أن تلمع أول نجمة في السماء حملنا متاعنا وعدنا أدراجنا، كانت سيماءُ الحزن لا تزال تشعُّ من وجه السيدة الطيبة، لم تكن تعلم أنني رغم حداثة سني حزينةً وفاقدةً مثلها بالضبط، في قلبي جراح غائرة على أمي وأبي وعلى أخي الذي سُرق وعلى نفسي وعليها وعلى ولدها، نامت ماما خديجة ليلتها تلك في مهجعنا قالت إنها متعبة لدرجة لاتستطيع إرتقاء الدرجات إلى الطابق العلوي، ومع خيوط الفجر الأولى إنطلق موكبنا من جديد إلى ذات الوجهة وذات الهدف، وبعد دقائق قليلة من بدء العمل، صار الشاي جاهزاً نادى ريحان وفتى المقلاع على عمال المزارع القريبة لتناول الفطور وجاءت سيدةٌ تحملُ صينيةً وطلبت فطورًا لأولادها، ثم توالت الوفود على خيمتنا بعد شروق الشمس، شبابٌ بزي رسمي وعساكرٌ ببزاتٍ خاكيةٍ، وطلابٌ بملابس الجامعة، مرت شاحنةٌ عسكريةٌ مسرعةٌ محملةٌ بالجنود لوّح الجنود لنا بقبعاتهم وأشار لنا البعضُ بعلامة النصر، ركض ريحان خلف الشاحنة وأنشدَ :

_ دايمين ودايم وطننا بيكم..

لكن الشاحنة لم تتوقف والجنود لم يفطروا معنا.

حين ارتفعت الشمس في كبد السماء، ظهرت بدرية من بعيدٍ، على ظهر أتانٍ تهمزها لتسرع الخطى، تركت ماما خديجة قدروها تغلى وخرجت تستقبل صديقتها وجلةً:

_ خير دادا !

_ مكتوب... مكتوب.

_ مكتوب!؟

أوضحت بدرية أنّ موظفًا من الحكومة حضر إلى الدار، وقال إن هنالك مكتوبٌ معنونٌ باسم خديجة محمد وأن عليها أن تبصم على محضر الإستلام بنفسها .

صعدت ماما خديجة على الفور إلى السيارة تجرني خلفها كالمعتاد وتَحركنا صوب بيت المزرعة، بينما تخب أتانُ بدرية خلفنا .

وصلنا أخيرًا كانت الحشائش على جنبي الطريق النازل إلى البستان كثيفةً ومرتفعةً وذاتَ خضرةٍ يانعة، وتتدلى أفنانُ الأشجار من خلف سور البستان كنسوةٍ فضولياتٍ يتلصصنَ على المشهد، وعند جذع شجرة اليوكالبتوس العملاقة التي تحرسُ البوابة تتكأُ دراجةٌ هوائيةٌ بطلاء اسود متقشر تتخللهُ بقع الصدأ، ويتدلى على جنبيها خُرْجٌ قماشيٌ مكتظٌ بالرسائل، وعلى بعد خطوتين وقفَ رجلٌ بعوينات سميكة وبدلة سفارية زرقاءٍ حائلة اللون، ترجلت ماما خديجة من السيارة وقفزت بدرية من صهوة أتانها تبعتهما كقطة منزل :

_ ما الخطب؟

_رسالةٌ من الصليب الأحمر .

_وماذا يريد الصليب الأحمر مني؟

_لديك أسير حرب، وقد أرسل لك رسالةً.

لطمت ماما خديجة صدرها ولمعت الدموعُ في عينيها وقالت :

_ خليل! بدرية هذا خليل!

فقال ساعي البريد :

_ بل إبراهيم، إبراهيم إسماعيل الجميل.

شهقت ماما خديجة وشحُب وجهها وبدتْ على وشك الانهيار، لاحظت بدرية أن لسان صديقتها عقدته المفاجأة تقدمت لتحادث ساعي البريد :

_ يمة إبراهيم مرحوم، استشهد عام١٩٨٢ كيف له أن يرسل رسالة.

_ لا أدري، ما اعرفه أنه اسير حرب يقضي مدة أسره في معسكر قربَ بحر قزوين.

_ يعني عايش؟

_ أكيد عايش، وهل يكتب الموتى مكاتيبًا!

كسرت بدرية مراسيم تجديد الحداد التي فقدت شرعيتها بوصول المكتوب، وأطلقت هلهولة اهتز لها سعف النخيل وأجفلت العصافير من أعشاشها ،وأوقفت حجافل النمل الزاحفة نحو كسرةَ خبزٍ أسفلَ سور المزرعة.

لقد عاد إبراهيم إلى الحياة برسالة يحملها ساعي بريد...رسالة منقولة على متن دراجة هوائية قديمة، عاد إبراهيم كما عاد ديموزي من سجنه في عالم الأموات، رقص الأولاد في دار الأيتام

وصـــدحت الهلاهـــل فـــي أركـــان القريـــة، ودارت اكـــواب الشـــربت ومـــواعين الكعـــك، وعينـــا ماما خديجـــة عـــين تضـــحك لقيامـــة إبـــراهيم وعـــين تشـــي بأنهـــا غيـــر مصدقة لما يحدث.

أرســـلت ماما خديجـــة فـــي طلـــب الخياطـــة، ووطلبـــت اليهـــا ان توشّـــي أطـــراف أثوابهـــا بخـــيط ذهبـــي وحـــين احتجـــت بدريـــة علـــى عـــدم نزعهـــا لثيـــاب الحـــداد اكتفت ماما خديجة بالقول :

_ وخليل!

كـــان الخـــيط الـــذهبي فـــي طـــرف (صـــاية) ماما خديجـــة يرمـــز للأمـــل بعـــودة ابـــراهيم مـــن أســـره ســـالمًا بينمـــا تصـــطبغ أيامهـــا حزنًـــا علـــى غربتـــه ومصـــير أخيـــه الـــذي لا يزال مجهولًا.

واظبـــت ماما خديجـــة علـــى زيـــارة قبـــر الجنـــدي الـــذي اســـتلمت جثمانـــه المطمـــوس المعـــالم ودفنتـــه علـــى أنـــه ابنهـــا البكـــر وبكتـــه بغـــالي الـــدمع بضـــع ســـنوات، كانـــت تعلل زيارتها لقبره قائلة :

_ ومن للغريب؟!

ركوة القهوة

أمين صيف ١٩٨٧

تهالكتْ بين أصابعي آخرُ الخيوط التي قد تقودني إلى أخي، كل الأبواب التي طرقتها سائلًا عنه لم تُجب، الطرقات التي سلكتها ألتمس خبرًا عنه لم تفض إلى شيءٍ، لا وجود لأي خطٍ أتتبّعُه على أمل التوصل إلى فرضيةٍ تفسرُ إختفاءه مع عائلته.

كان رجالُ الأمن يراقبون البيتَ ويطلبونني للإستجواب كلما لمع في سمائنا بارقٌ جديدٌ، أعيش متوحدًا بين أربعة جدرانٍ الطرفُ الصناعي يؤلمُ عقيرتي، القروح وعيون الصديد تستنزفُ طاقتي، ولا أرغب في العودة للحَجل واستخدام العكازين البغيضين، عليّ أن أعتادَ الساقَ الخشبيةَ قبلَ صدور أمر إعادة تعييني كطبيبٍ مدني بعد انتهاء رحلتي في الطب العسكري .

الوحشةُ التهمت ما تبقى من روحي، انقلبت حياتي ما بين أفول شمسٍ وإشراقة صباحٍ، فصار يومي المزدحم بالمهام مترعًا بالخواء ممتلئً باللاشيء، كلّ ما حولي كانَ اجوفًا...غرفتي.. رفوف كتبي.. وأدراج طاولتي.. حتى معجمَ كلماتي قُرضت أطرافه حين صار الصمتُ رفيقي وأنيس وحدتي. لا شيء أفعله سوى التنقل بين أولاد حارتنا لنجيب محفوظ والنخلة والجيران لغائب طعمة وموسم الهجرة للشمال للطيب الصالح...كتب سبَق وقرأتها، أيامي لن تأتيَ بالجديد بعدَ الآن، سأعيش على ما تبقى من ذكريات زمنٍ مضى، فكرتُ في تدوين أحداث حكايتي تمهيدًا لنشرها في كتابٍ...أفنيت أيامي بين لفافة تبغٍ وأخرى وسطرين من كتابٍ وبضعُ كلمات متعثرة على صفحة مفكرتي.

أمي ككثير من ثكالى ذلك الزمن أصابها ولعُ فكّ رموز الكف، وقراءة الفنجان والتبصير بأوراق اللعب وقراءةُ الطالع، حمى أصابت الأمهات الفاقدات حينذاك، الشهداءُ الذين لم يُعثر لهم على جثامينٍ، والأسرى الذين لم يُسجَلوا في جمعية الصليب الأحمر، والمفقودون الذينَ ظلت مصائرهم مجهولةً.

قلوب الأمهات لا تُسلم بالنهايات المفتوحة، الأم تريد ابنًا حيًا وإلّا فقبر، قبرٌ تذرف عنده الدموع، وتوقد على شاهده الشموع، نصبٌ تزوره صباحَ العيد محملة بالكعك والحلوى تفرقها على من يصادفها ...

هدَرَتْ أمي قناعاتها المنطقية ومعتقداتها الدينية وتعلمت طريق المتبصرات وفتّاحات الفأل وقارئات الفنجان، لجأت لما وراء العقل حين عجز العقل عن إعطاء شرحٍ مقنع لإختفاء ابنها البكري مع عائلته .

وذات مساء ودعتْ أمي زائراتٍ جئن يتشاركن معها فناجين القهوة وفكَّ رموز آثار البنّ العالقة في قعر الفنجان الخاوي كخارطة أيامي، إنضمتْ بعدها إلى مجلسيَ الكئيب، كانت الإبتسامة تفرّ من عينيها الدافئتين حين بادرتها بالقول :

_ (ها يوم شكو ماكو) .

_أتعرف السيدة التي كانت هنا؟ إنها أخت أم سبهان جارتنا، ماهرةٌ في قراءة الفنجان.

فأجبتها وأنا أفتعل الدهشة:

_حقًا!

فقالت كطفلٍ يتحرقُ لسرد تفاصيل يومه:

_أي والله.

ثم اردفت:

_لقد رأت في فنجاني هدهدًا يقفُ على شجرة غير بعيدة.
رفعت حاجبي في إشارة مني لتكمل حديثها
_ قالت إن خبرًا سيَردُنا من غائب.
فأجبتُ:
_ خيرًا إن شاء الله .
سكتَ كلانا بعد ذلك، لم تمتلك أمي الجرأة لتعترفَ أنها تكذب على نفسها وأنها تعلم أن الهداهد توقفت عن نقل الأنباء، وأنها فقدت الأمل في عودة أخي سالمًا، ولو أنها أضافت أية كلمةٍ لكان اجتماعنا انقلبَ إلى مأتم، كانت توشكُ أن تبكيَ كلَّ الدموع التي امتنعت عن ذرفها بحجة أن كل شيء سيعود أفضل مما كان، كل الآهات التي كتمتها في صدرها اجتمعت في غيمةٍ داكنةٍ كانت اختبأت ذاك المساء تحت أجفانها، فآثرتُ السكوتَ .
وحين أعلن الليلُ بسط كامل سيطرته على الأفق، وانتثرت النجوم في أرجاء السماء كجنود على رقعة شطرنج...حملت سكائري ودفتر يومياتي وكتابي القديم ولجأتُ إلى غرفتي، كغيلمٍ مسنٍ يهرب من ضجر عالمه إلى كآبة صَدفَته.
بحثتُ عن روايةٍ أخرى؛ أدفنَ آلامي بين معاناة شخوصها، فوقعت عيني على رواية توليستوي (الحربُ والسلام) أخذت الكتاب وعُدتُ إلى طاولتي تلك التي شهدتْ على كفاح ست سنوات في دراسة الطب، تحسستُ الغلاف براحة كفي، كمن يصافحُ صديقًا قديمًا قابله صُدفةً بعد طول غياب، سَرتْ في جسدي رعشةٌ مدوخةٌ كتلك التي تحدث عنها هربرت جورج ويلز في آلة الزمن، أعادتني إلى ذكرى هذا الكتاب الذي حصلتُ عليه من دكان لبيع الكتب القديمة في شارع النجفي،

طالما انجذبت لرائحة الكتب القديمة، أؤمن أنها تحكي قصة أبطال الرواية وتجارب القراء الذين مروا على صفحاتها جيلًا بعد جيل...شرعت بالقراءة، فجرفني تيار الكلمات، انهمكت بالقراءة، لمحتُ بعدها طيفَ أمي يمرقُ عبر السلالم إلى غرفة صادق في الطابق العلوي، الطقس الذي أدمنته في الشهور الماضية، تصعدُ كل ليلةٍ ما أن يجنَّ الظلام، ولا تظهرُ من جديد حتى ينتصفَ الليلُ، انشغلتُ بالقراءة حتى دهمني الكرى فنمتُ على كرسي، أيقظتني أمي حين دخلت عليّ تحملُ بيمينها ورقةً مطويةً قربتها مني وقالت :

_ وجدتُ هذا الخطاب مطويًا بين صفحات مفكرة قديمة لأخيكَ في دُرج طاولة الزينة، خذ إقرأ بنفسك.

اعتدلت، وتناولت الورقة:

إنه خط صادقٍ، أعرفه كما أعرف كفّ يدي، لا شيء سوى سطرٍ مقتضبٍ:

(حين ستجدون هذا الخطاب سنكون قد عبرنا إلى الضفة الأخرى)

لم يكن احتمال أن يكون صادق فرَّ بعائلته خارج البلاد غائبًا عن بالي، لكنّ الظنَّ يبقى ظنٌ ولا يغني عن اليقين شيئًا، تذكرتُ اللقاء الأخير الذي جمعني به قبل اختفاءه، كان يلعنُ السلطة وماكنة الدم، ويتكلمُ بانبهارٍ عن تجارب أولئك الذين نجحوا في الفرار خارجَ البلاد، لم أعط إهتمامًا لكلام أخي، هكذا هو صادق يتأثر بالفكرة، فيتبناها دون لحظة ترددٍ، ويقاتلُ من أجلها حتى آخر نفس، كان عليّ أن اقتلعَ ذلك الهاجس من تفكيره..

وماذا ينفع استعراضُ ما كان عليّ فعله وما كان ينبغي قوله؟ ما كان كان، وحسبنا ما عشناهُ من قلقٍ وخوفٍ ويقينٍ تامٍ بإنعدام فرص عودته سالمًا من جديدٍ .

لم أملك حينها إلا أن أتمنى أن يكونوا قد عبروا بسلامٍ، وألا يكون ذلك السطرُ قد كُتب تحت تأثير سكرة الحلم التي كان يعيشها كلما قرر إحتضان عقيدةٍ فكريةٍ جديدةٍ.

كان ظهورالرسالة كالسكين التي فقأت عين الصديد، وأنهت حالة التخبط التي عشتها بعد إصابتي واختفاء أخي، كانت كل ما إحتجته لأرى بوضوح أنني عالقٌ بمفردي في تلك المصيدة وأنّ يدًا غيرَ يدي لن تمتدَ لتنتشلني مما أنا فيه، أنا عُكازي وأنا الحائطُ الذي سأتكأ عليه ريثما أستعيد قوتي، وأنا الضوء الذي سيتراقص عند نهاية النفق، لا أحد غيري، أنا هنا لوحدي، مع أمي المسنة القلقة من كلّ ما هو آتٍ.

كان الخطاب يشبه الوداع الأخير لرفاة آخر رجاءٍ لي بتلقي العون من أيّ إنسان.

مكثت أمي بعد ذلك لدقائق قليلة دون أن ينبس أيٌّ منا بحرفٍ، لم يظهر الارتياح الذي توقعتهُ على ملامحها، كانت عيناها تنطقان بالكثير من عبارات العتاب، بدت كمن يعاتب صديقًا سافر دون أن يودعه، ربما شعرت بعد هذا العمر الذي أفنته في تنشئتنا أننا كبرنا لدرجة أنها لم تعد جزءًا من خططنا، تناولت العكاز وخطوت نحوها عانقتها وقلتُ لها :

_ المهمُ إنه بخير.

تفجرت مدامعها...أمطرت مآقيها كل السحب التي طافت في سمائها منذ حكاية الهدهد الذي ظهر في قعر الفنجان...

وطنٌ صغيرٌ

نيسان

في مطلع تموز العام ١٩٨٧ بدأ تدريبي كممرضة في مستوصف بعيد على أطراف المدينة.

كان التنقلُ بشكلٍ منفردٍ لا يزال صعبًا على فتاةٍ في مثل عمري، فرافقني علاء في يومي الأول، انطلقنا على متن حافلة نوع (ريم) مع جمعٍ من النسوة والرجال، تجاوزنا المدينة القديمة ثم عبرنا الجسر الحديدي إلى الساحل الشرقي لدجلة ... اتسع العمرانُ كثيرًا في تلك السنوات، أحياءٌ ومناطقٌ سكنيةٌ جديدةٌ تم استحداثها وراءَ النهر، كانت رحلةً طويلة، لم أتوقع أن يكون المستوصفُ بعيدًا كلَّ هذا... عبث الدوارُ برأسي فتوقف الباص عند آخر محطة له وترجّل الركاب بما فيهم أنا وأخي، لا أثر للمستوصف، أرضٌ خواء وهياكلُ متفرقةٌ لبيوت قيد الانشاء، شعرتُ أننا في ورطةٍ وحمدت الله أنّ علاء كان معي لكنتُ بكيتُ في الشارع كطفلةٍ تائهةٍ.

رأينا من بعيدٍ سيدةً بعباءةٍ، استعلم منها علاء عن مكان المستوصف ،تجاهلتنا ومضت مبتعدةً لحقتُ بها:

_ عذرًا هل لي بسؤالٍ؟

التفتت إليّ ورطنت ببضع كلماتٍ .

ففهمتُ أنها لا تتكلم العربية.

تسمرنا مكاننا ماذا سنصنع ؟

فكرتُ أن نأخذ أولَ حافلة عائدةٍ إلى مركز المدينة وألغي فكرة الخروج من الجحيم!

أأستسلم عند أول عقبة!

كان الصراعُ بين اليأس، والأمل، بين الرغبة في المضي قدمًا والنكوص للخلف يعتملُ في صدري حين رأيتُ سيدةً بثوبٍ أسودٍ تزينه خطوط صفراءٌ متقاطعةٌ ،تقترب من بعيدٍ، قلت لعلاء:

_ سأسأل هذه السيدة.

اقتربَ وقعُ حذائها، وأنا أحضّر الحوارَ الذي سأتلوه عليها كطفل يراجع الأنشودة التي سيقرأها لتحية العلم .

وحين دنَت أكثرأحسست أنني اعرفها... لقد كانت سهيلةٌ صديقةُ أمي، ابتسمت لي من بعيد، فانخفض معدل نبضات قلبي وبادلتها الإبتسام :

_نيسان... ما الذي جاء بك إلى هنا؟

صبَّحت عليها بودٍ، وحكيت لها أني هنا لأُباشرَ عملي الجديد ، فسارعت للقول:

_ أين ستعملين؟

_مستوصفُ الوطن.

ضحكتْ سهيلةٌ وقالت :

_ إذن أنت الممرضةُ المتدربةُ التي ستنضم إلينا اليوم! هيا يا فتاة ستعملين تحت إمرتي، أنا رئيسة عمل صعبةُ المراس .

غادر علاء، فأمسكت سهيلةٌ بيدي ومشينا صوبَ المستوصف عبر طريقٍ غير معبدٍ، تحت شمس تموز الحارقة وبعد مسير أكثرَ من عشرينَ دقيقةٍ لاحت لنا من بعيدٍ بنايةٌ بطابق واحدٍ مطليةٌ باللونين الابيض والبني تعلوها لافتةٌ خشبيةٌ كُتب عليها (مستوصف الوطن للرعاية الصحية الأولية) تم تأسيسه عام ١٩٨٧ .

بوابةٌ حديديةٌ دخلنا من خلالها إلى حديقةَ صغيرةٍ بشجيرات آسٍ فتيةٍ، عبرنا بعد ذلك من بابٍ خشبيٍ إلى بهوٍ بسقفَ منخفضٍ يصطف على جنبيه صفين من الكراسي، رائحةُ المكان ذكرتني بوخز الإبر الذي كنتُ أخشاهُ في طفولتي، كانت البنايةُ حديثةَ الإنشاء، فعلبُ الطلاء الفارغة لا تزالُ في كل مكانٍ، اتجهت سهيلة وأنا من بعدها إلى الصيدلية، تحدثتْ إلى شابٍ ببشرةٍ داكنةٍ وعينين واسعتين، كلمته بألفة وودٍ، ناولها مفتاحًا معلقًا بحلقةٍ معدنية، كان يحملقُ في وجهي كأنه يريد أن يرسمَني، ثم قال مخاطبًا رفيقتي :

_ نادني حين يكونُ الشاي جاهزًا .

أومأت له سهيلة موافقةً، وتقدمتني نحو غرفة التمريض، غرفةٌ صغيرة يتصدرها سريرٌ ضيقٌ بأرجلٍ مرتفعةَ، وعند رأس السرير طاولةٌ مدولبةٌ ترتبت عليها معداتُ التمريض والضماد، وعلى الجدار المجاور استند دولاب حديدي ذو واجهةٍ زجاجيةٍ تتنضدُ خلفها ضمادات ومعقماتَ ومحاقنُ طبية..

كانت سهيلة ترتدي معطفها الطبي حين دلفت من الباب سيدة بثوب أحمرٍ وحزامٍ جلدي أسود وشعرٍ مصففٍ بعنايةٍ مدتْ السيدة نحو سهيلة يدًا تحملُ محقنة طبية وإبرة دواء، وتمتمت بكلمات لم أفهم منها شيئًا، التفتت إليّ مديرتي وقالتْ بحزمٍ:

_ إقتربي، فلدينا زرقٌ عضليٌ.

فغرتُ فمي متعجبة وقلت في نفسي :

_بهذه السرعة!

لـم تنتظـر سـهيلةٌ ردي، تناولـت ندفـة قطـنٍ مـن وعـاء معـدني مملـوء حتى آخـره بكـرات قطنيـة معـدّة بعنايـة وغمسـتها بسـائلٍ بنيٍ وسـحبت يـدي لتجـذبني إلى حيـث تقـف السـيدةُ، نـاولتني المحقنـة التي صـارت معبـأةً بـدواء أحمر له رائحة سيئة وقالت :

_ أغرسيها هنا بشكل عمودي هنا ... هنا.

مسحتُ المنطقة المُشار إليها بالقطنة المبللة بالسائل المعقم، كانت أصابعي ترتجفُ لكنني مصممة على خوض التجربة حتى النهاية، طعنت السيدة بإبرة المحقنة وضغطتُ المكبسَ فندّت عني صرخةُ توجعٍ وكأن الإبرة انغرست في جسدي أنا!

مسحتُ موقعَ الحقن بالقطنة كما أرشدتني سهيلة التي كانت تكتم ضحكتها .

كان قد مضى بعضٌ من الوقت حين دلفَ الشاب الأسمر الذي أعطانا المفتاحَ واسمهُ "مْهاوي" معاون الصيدلي المسؤول عن صرف الأدوية للمراجعينَ، قالت سهيلةٌ إنه يحدق في الناس بفظاظةٍ، لكنهُ طيبٌ وذو مروءةٍ، كان مْهاوي يحمل كأس الشاي الذي صبتهُ له سهيلة حين جاءت الفرّاشةُ وقالت:

_ وصلَ المدير.

فتحتُ حقيبتي لتجهيز أوراق تعييني التي سأقدمها وأنا أمثلُ أمامهُ، خرجت بإثر العاملة وتوجهت إلى غرفة المدير، طرقت الباب فجاءَ الصوت من الداخل :

_ أدخل.

دخلت على إستحياءٍ وضعت أوراقي أمامه على الطاولة .

كان في نهاية أربعيناته بعينين حادتين ونظرةٍ ثاقبةٍ وجبينٍ متغضنٍ وشعرٌ داكنٌ تتخللهُ شعيراتٌ فضيةٌ متفرقة وملامحُ صارمةٌ:

_نيسان؟

_ نعم .

_ ماذا درست؟

_علم نفس.

خربش على الورقة ثم رفع ناظره وقال :

_بوسعك ان تباشري تدريبك منذ الآن.

غالبًا ما يحكي اليوم الأول في مكان جديدٍ الكثيرعن نهج ما تبقّى من المسيرة، أحببتُ الوطنَ الصغيرَ الذي حصلتُ عليه في مستوصف الوطن منذ أول خطوة خطوتها فيه، تعلمت بسرعة فصرت أعقّم واضمد واقطب الجروح بمهارة، واقتصرت مهام سهيلة على إبداء الملاحظات واعداد الشاي وطرح نمائم آخر الأخبار على طاولة الشاي مع مْهاوي، تكفلتُ بأعمال غرفة التمريض بالكامل بعد أقل من شهرٍ على مباشرتي بالتدريب.

مرت الأيامُ مسرعةً وأنا أعمل كل يوم منذ الصباح حتى بعد الظهر، أعودُ إلى البيت متحاشية أيّ موقف قد يجمعني بأبي، كنت أخشى أن النظر في عينيه كيلا أنسى ما كان منه وأسامحهُ على ما مضى... حتى جاء ذلك اليوم.

لقاءٌ أخير

نيسان

في أيلول عام ١٩٨٧ خرجتُ في الصباح الباكر كعادتي أتمشى إلى موقف الحافلات، كان عدد المنتظرين هناك يبلغُ ضعف العدد المعتاد، مرت عشرُ دقائقٍ ولم تأتي أيّ حافلةٍ، ومرت نصف ساعة أخرى ونحن ننتظر، الجمع يتزايد ولا وجود لأية حافلةٍ، دارت بعض الهمهمات بين المحتشدين بأنّ الحزب ينضمُ مسيرة هذا اليوم، وأن الإنضمام إلى المسيرة المؤيدة للقيادة الحكيمة واجبٌ على كل مواطنٍ شريفٍ، قال أحدهم:

_ الباصات ستصلُ بعد قليل لتأخذَ الجميعَ إلى باب الطوب لننطلق من هناك في مسيرة جماهيرية الى مبنى المحافظة لتجددَ الجماهير عهد الوفاء للقائد .

انسحبت تدريجيًا إلى الصفّ الأخير من كومة البشر المنتظرين للإنضمام إلى مسيرة تجديد العهد، وقفتُ هناك أرنو إليهم من طرفٍ خفيٍ، اقتربَ رتلٌ من ثلاث حافلاتٍ ركنت عند رصيف الموقف، إغتنمت فرصةَ الغوغاء والضجيج الذي افتعله حاملو اللافتات والأعلام، ومشيت مبتعدةً عن الموقف، وما إن غبتُ عن عيونهم حتى أسرعتُ الخطى كطفلة تهرب من المدرسة إلى البيت.

سيارةُ أبي لا تزالُ في المرآب يبدو أني لست الخائن الوحيدَ في هذا البيت، فقد تخلف أبي ايضًا عن مسيرة تجديد عهد الولاء ومكث في البيت، دخلت دون أن أحدث أيّ جلبة وتوجهت إلى غرفتي في الطابق العلوي، وضعتُ حقيبة يدي جانبًا، طُرق باب غرفتي، يبدو أنّ الطارقَ كان يمشي بأثري!

دخلَ قبل أن آذن له بالدخول.

إنه أبي، غامَ قلبي بسحابة ضيق يبدو أنها ألقت ظلالها على ملامحي، إذ انطفأت ابتسامتهُ وطفتْ على وجهه مسحةُ خيبةٍ، جلسَ على حافةُ السرير وبعد دقيقة صمت قال :

_لقد أقلعتُ عن الخمر منذ شهورٍ، ولن أعود إليها ما حييت، أصلي كل صلاةٍ بوقتها، ولم أعد أُعنّف أمك كما في السابق، لقد تغير كلُّ شيءٍ .

كان يتحدثُ كَولد مذنب يسوق أعذارهُ ليليّنَ قلب أمه الغاضبة منهُ، حاولت أن ألينَ له لكنني كنت كلوح خشبيٍ عاجزٍ عن الإنثناء، ذكرياتُ الوجع صدئت وتصلبت وصارت جزءًا من كينونتي، لم تعدْ مشاعر العار التي عشتها لسنوات على أني (ابنة السكرجي) غبارًا أنفضهُ عني وأعودُ لأسامحَ، وأعيش وكأنّ شيئًا لم يكن، ثم حادثةُ الجديلة التي دقّت الوتدَ الأخير في نعش الأبوّة والبنوّة...

لكنّ صوتًا خجولًا بداخلي كان يهمسُ لي :

_ابتسمي...إقتربي وعانقيه...أخبريه أنك قد طويت صفحة الماضي ولا تزالين ابنة بابا المدللة، لكنني كنت كشجرة عاجزة عن الإنحناء لإلتقاط أوراقٍ التي أسقطتها ريحُ الخريف.

وجمَ أبي أمام صمتي وبرودي ثم حملَ نفسهُ وغادر.

أكملت يومي، أكمم ضميري الساخط مني، قائلة في نفسي:

_أن أقسو عليه مرةً في العمر، يبدو ذلك منصفًا للغاية أمامَ ما فعله بنا على مرّ السنين،إنه يستحق ما يحدث له .

لكنّ نايًا كان يعزفُ لحنًا حزينًا في وجداني، لحنًا يشدني إلى أبي...جاذبية عجيبة أجهل سببها كانت تدفعني إليه، وأنا أتحامل وابتعد .

لم أقترب منه ولم أتبادل معهُ أي حوار....سايرتْ وتيرةُ العمل مبتغاي فدارت مستعجلةً، كنتُ أمضي من البيت إلى العمل ومن العمل إلى البيت دون فسحةٍ للتفكر فيما قد يكون.

وبعد أقل من أسبوع، كنت في غرفة التمريض والدوام على وشك الانتهاء حينما دخل مْهاوي وقال:

_ ست نيسان، تليفون لك في غرفة المدير.

_من عساه يخابرني!

أصابني الوجلُ إذ لم اتلقَ أيّ مكالمةٍ في العمل من قبل، مشيتُ بخطواتٍ صغيرة كمن رُبطتْ ساقاه، دخلتُ غرفةَ المدير فاستقبلتني رائحةُ طلاء الخشب، ودخانُ السكائر الممزوجتين، مع رائحة الحبر، وعطر ما بعد الحلاقة، تناولت سماعة الهاتف بأصابع ترتجف، من عساه يتصل ولأيّ سببٍ ولمَ أنا متوترة كل هذا ؟

شعرتُ أني قد عشت ذلك المشهدَ من قبل، ربما رأيته في منامٍ، أجبتُ فجاء صوت علاء :

_ نيسان تعالي حالًا، أبي متعبٌ للغاية .

رميتُ سماعةَ الهاتف جانبًا، انحبس الهواء في رئتيّ، ثقُلَتْ أنفاسي وصارت دقات قلبي تطرقُ بعنفٍ على أضلاعي، كان أصدقائي ينظرون إليّ بإشفاق وعيونهم تنطقُ بالمواساة، تطوعتْ سهيلة بإيصالي إلى البيت .

حينَ وصلت وجدتُ بعض الجيران والأقارب والاصدقاء يقفون في المرآب، يتحادثون :

_ لا حولَ ولا قوة إلا بالله .

_رحمةُ الله عليه، سبحان الحي الذي لا يموت.

دخلتُ البيت أركضُ وأصيحُ بلوعةٍ:

_ بابا .. بابا

هرعَ علاء إليّ واحتضنني باكيًا.

_ عـــلاء هنـــاك خطـــأ مـــا، أنـــا متأكـــدة بأنـــه لا يـــزال حيًا.

_ وحدي الله ، وحدي الله.

ثـــم أخـــذ يـــدي، ودخلنـــا غرفـــة الضـــيوف التـــي لـــم أدخلهـــا منـــذ واقعـــة الجديلـــة، كـــان جســـدُ أبـــي مســـجيًا علـــى الأريكـــة أزاحَ عـــلاء الغطـــاء عـــن وجهـــه، كـــان مغمـــض العينـــين، وقـــد اطفـــأت عتمـــة المـــوت بريـــقَ الحياة في وجهه إلى الأبد.

حبســـت دمعـــي ولـــوعتي فـــي حضـــرة الجثمـــان، وبعـــد أقـــل مـــن دقيقـــةٍ خرجـــت إلـــى صـــالة البيـــت، كانـــت النســـوة قـــد بـــدأنَ بالاحتشـــاد، ركضـــت إلـــى أمـــي، عانقتهـــا وانهـــرتُ فـــي سَـــورة بكـــاءٍ عارمـــة لـــم يســـكتها إلا صوتُ علاءٍ الذي صدح بعد حينٍ مناديًا:

_لا إله إلا الله.

والرجالُ يرددون من بعده...

حُمـــل أبـــي إلـــى مثـــواه الأخيـــر، انتهـــى دوره فـــي حيـــاتي إلـــى الأبـــد، غـــادرَ دون أن يســـمع منـــي كلمـــة الحـــب والمغفـــرة التـــي تمناهـــا، وقعـــتُ علـــى الأرض أبكـــي وانتحب، أضرب على رأسي وعلى وجهي واصيح :

_ أعيدوه، أريد أن أودعهُ ..

أيـــامٌ الحـــزن طويلـــةٌ وســـاعاتها لا تـــدورُ كمـــا تفعـــلُ فـــي بـــاقي الأيـــام، بـــدا الوقـــتُ بـــين مكالمـــة عـــلاء ولحظـــة انطلاق التهاليل من باب بيتنا كأنها دهرٌ.

لـــم تجـــفّ دمـــوعي طـــوال النهـــار، وهكـــذا أمضـــيت أيام العزاء بين بكاء ونوبات شُهاق وإنتحاب.

علمـتُ بعـدها أنـه كـان مريضًـا ومُجـازًا مـن عملـه منـذ أكثـر مـن أسـبوع، لقـد حـدس أبـي أن النهايـة قريبـة وجـاءني لنتصـافى ونتـوادع قبـل الرحيـل ولكننـي حسـبتُ أن الحيـاة سـتمهلني، ظننـتُ أن أمـامي العمـر بطولـه لأصـالحه، وأجلـو عـن روحـي كـل مـا علـق بهـا مـن بغضـاء الماضـي...كنت متفائلـةً أكثـرَ مما ينبغي.

ظلـت ذكريـات حديثـه الأخيـر تطعـنُ قلبـي بخنـاجر الندم الثلمة، كان يستجدي عفوي كطفلٍ مذنبٍ.

يـا لَقسـوتي! ليتنـي أسـتطيع أن أخبـره أنـي لسـت زعلانـةً منـه، وأن ضـفيرتي فـداءٌ لوقـع نعلـه تـردده بلاطات بيتنا كل صباحٍ...

أمين

الأميرةُ الحزينةُ

يبعد "مركز الوطن للرعاية الصحية الأولية" أكثرَ من ساعةٍ عن مركز المدينة، لا يُفترض أن يعملَ جراحٌ مثلي في مركز للرعاية الصحية الأولية في الأطراف، كانت صالات العمليات وسطَ المدينة أحوجُ ما تكونُ إليّ...لكنّ الظروفَ الغامضةَ التي أحاطتْ بإختفاءَ أخي والشكوك شبه المؤكدة في هربه إلى ما وراء الحدود كانت خلفَ حرماني من فرصة العمل التي أستحق، مزيدٌ من الضغط لعلّي أدلي بأي معلومةٍ حولَ مكان أخي ومَن وراءهُ...نحن لا نملك سلطة اختيار هذا واستبعاد ذاك في كثير من المواقف، القبولُ والرفضُ مرهونان بكونك مخيرًا .

_المستوصفُ يستقبلُ الكثير من الإصابات والحالات الجراحية الطارئة.

هكذا برزَ مدير المستوصف تواجدي في مركزه بدلًا من صالات العمليات في قلب المدينة، كان الهمس يسري بين زملاء المهنة حول أسباب إستبعادي من العمل الجراحي، ومنعي من ممارسة اختصاصي.

كان كادرُ المستوصف يتألّفُ من معاون صيدلي شابٌ يشبهُ عطيل بسمرةٍ داكنةٍ وعيونٍ واسعةٍ وممرضةٍ خمسينيةٍ، ثرثرت كثيراً في الأسبوع الأول عن افتقادها لمساعدتها التي ذهبت في إجازة. كان همي الأولُ في تلك الحقبة أن أخطوَ صوبَ العودة للحياة آملًا أن تشرقَ أيامي و ينتهي عهدُ عتمتي، عملتُ بكل جد، وصفتُ قوارير دواء السعال، والعقار المضاد للحمى، وحبوبَ الصداع، فحصت ضغط دم العجائز،

حاولتُ بكل طاقتي أن أكنس الظلام بعيدًا عن مساحتي، كنتُ أنهكُ نفسي في العمل لأعود مرهقًا بعد الظهر فأنامُ دون الخوض في مرارة ما آل أليه قدري.

انقضى الأسبوع الأول دون أحداثٍ تذكر، وفي منتصف الأسبوع الثاني ظهرت(نيسان)رأيتها للمرة الاولى تتحدثُ مع سهيلة بباب غرفة التمريض، كانت بوجهٍ نحيلٍ وبشرةٍ شاحبةٍ وعينين سوداوين حزينتين وأهدابٍ كثيفة كغابات السرو، وقصة شعرٍ قصيرةٍ، وشعرٍ متموجٍ يشي بعقل يزدحمُ بالأفكار، كانتْ تبدو كأميرة مدللة طرأ الحزن على قلبها من زمنٍ قريبٍ، تحتجبُ خلفَ سواد ثيابها كقمرٍ يتوارى خلفَ السحاب، فيزدادَ ضياءه السديمي خلبًا للألباب، تغطي قبةَ ثوبها العالية معظم جيدها الممتد كسيقان اللوتس، يلتم الثوب حول خصرها النحيل بشريطةٍ تربطها خلف ظهرها، ثم ينحدر فضفاضًا لينتهي قبل كعبها بقليل، حذاءٌ بكعب منخفض في محاولةٍ أخرى من جميلتنا لصرف الأنظار عن عودها الفارع الممشوق حياءً.

تشبهُ نيسان آلهةً سومريةً بجناحين فضيين، وتاجٍ تزينه ازهارُ البابونج .

" نيسان" اسمٌ جميل!

كيف لأنثى أن تحمل اسمًا بكل هذا السحر؟

أيّ عاشقٍ.. وأيّ قلب شفيفٍ منحك هذا الاسم؟

كانت تبدو عمليةً لمّاحةً شديدةَ الذكاء...

ثوريّةٌ كاسمها تُزهرُ ليعمَّ الرخاء، وتغضبُ ليفيضَ الوادي ويغرقُ ما حوله .

انسقتُ لمزاج الشاعر الذي فرضهُ عليَّ حضورُ الجميلة التي أسرَت قلبي، واحتلت كياني منذ اللحظة الأولى .

واجهتُ صعوبةً في إعادة عقلي للعمل بوتيرته المعتادة، فوضعتُ على وجهي قناعَ الطبيب الجاد الذي لا يلتفت لما يشغله عن أداء مهام عمله شاغلٌ، كان أفراد الكادر ينظرون إليها بإشفاق، فهمتُ من مْهاوي أن والدها توفيَ قبل أيامٍ .

كانَ خلفَ ستار الحزن الكئيب الذي غلّفها حزنٌ آخر، كان لحزنها أكثرُ من قصة و أكثر من بعد، هكذا قرأتُ في عينيها قبل أنْ يجرفني تيار المرضى بأوجاعهم وجراحهم وخيباتهم.

إنَّها الساعة الثانية عشرة وثلاثون دقيقةً بعد الظهر حسب توقيت أمين عز الدين كما كان يحلو لصادق أن يقول حينما كنا نتخاصم أنا وهو حول ساعة من هي الأدقُ؟

تربعت الشمس على عرش الفضاء الأزرق المحيط بها؛ فانقطع سيلُ المراجعينَ، إنَّه موعد سيكارتي وكتابي، كنت معتادًا على حمل ديوان شعرٍ أو رواية جيب معي أينما حللتُ، دسست يدي في جيبي وتناولتُ رفيقَ رحلتي لذلك اليوم، ديوان شعر(حبيبتي) لنزار قباني.

فتحت الكتاب كعلاء الدين حين مسحَ على مصباحه السحري.

تجاوزت المقدمةَ، وحقوق الطبع، والإهداء، كان همي الوصولَ إلى القصائد، هكذا نحنُ ننشغلُ بالوجهة ولا نأبهُ بالطريق، خرجتْ لي قصيدةُ (أكبرُ منْ كل الكلمات).

تأسرتني كلماتُ نزارٍ وموسيقى شعره كمارِدٍ عملاقٍ يحتلُ خيالي فلا أعودُ قادرًا على الشرود بفكري أبعد مما ترسمه كلمات القصيدة:

سيدتي ! عندي في الدفتر
ترقص آلاف الكلمات
واحدةٌ في ثوبٍ أصفر
واحدةٌ في ثوبٍ أحمر
يحرق أطراف الصفحات
أنا لست وحيدًا في الدنيا
عائلتي .. حزمة أبيات
أنا شاعر حبٍ جوالٍ
تعرفه كل الشرفات
تعرفه كل الحلوات
عندي للحب تعابيرٌ
ما مرت في بال دواة
الشمس فتحت نوافذها
و تركتُ هنالك مرساتي
و قطعت بحارًا .. و بحارًا
أنبش أعماق الموجات
أبحث في جوف الصدفات
عن حرفٍ كالقمر الأخضر
أهديه لعيني مولاتي
سيدتي! في هذا الدفتر
تجدين ألوف الكلمات
الأبيض منها والأحمر
الأزرق منها والأصفر
لكنك.. يا قمري الأخضر
أحلى من كل الكلمات

أكبر من كل الكلمات

سحقتُ ما تبقى من سيكارتي مع انتهاء آخر بيتٍ من القصيدة فوخزني هاجس مؤلم، حبيبة وقصائد شعر ورجل في أواخر عشرينياته بساق واحدة وعكازٍ!

ربما كانت نور على حق أنا لست إلا نصف رجل، من أين ستأتي الحبيبة؟!

لأسمعها كلمات الحب المخبأة في قماقم الجن ودفاتر الشعر...

أيّةُ جميلة تلك التي ستُقبّل الضفدع لتعيد إليه روح الأمير؟

لا جميلةً، ولا قصائدَ شعرٍ ولا قبلاتٍ إنها محضُ تخيّلاتٍ، خيالات مقاتل أعطبت الحربُ نبض روحه، هاربٍ من واقعٍ لا يطل على دنيا الأحلام من أيّة نافذة!

عُدتُ بعدها غرفتي كان الكل مجتمعًا في غرفة التمريض حين أرسلت سهيلةُ في طلبي تدعوني لشرب الشاي، ترددت في البدء، لكنني غلبتُ نزعتي للانعزال وذهبتُ، قالت سهيلة محاولةً التخفيفَ من الحرج البادي عليّ:

_ إننا هنا أسرة واحدة .

كان مهاوي يرشف شايه ونيسان منزوية في طرف الغرفة تشبك ذراعيها أمام صدرها كأنها تعانق نفسها لتشعر بمزيد من الطمأنينة .

قالت سهيلة :

_ دكتور كن أنتَ الحكم.

_فيم؟

_مُهاوي يحب فتاةً مسيحيةً معلمةً تدرّس في مدرسة الحيّ هنا، هل تصدق أن فتاة مسيحيةً قد تحب شابًا مثل مُهاوي؟ ثم قهقهت ضاحكة.

ردّ عليها مْهاوي دون أن يمنحني فرصةً للتفكير في ردٍّ دبلوماسي يحفظ مشاعرَ الجميع.

_ كيف يعني مثل مْهاوي؟ مم يشكو مْهاوي، سعيدة حظٍ من يكتب لها القدر أن تسكنَ قلبي.

فردت سهيلة ساخرة :

_ لا مثيل لك صدقني، أنت مثل الكعك المقسب لذيذٌ ومقرمش.

ابتسمت نيسان، ثم استدركت مؤنبةً سهيلة على سخريتها من لون مْهاوي :

_ سهيلة لا تسخري من مْهاوي بهذا الشكل.

اقتلعَ صوتها المتعَب روح الدعابة والمرح من الموقف، انتقلت عدوى الحزن للجميع، فسادَ الصمت وأطرقَ الاثنان كطفلين مذنبين، وانشغلتُ أنا بشايي واستراق النظر إليها.

في الصباح التالي وصل مْهاوي متأخراً بحوالي الساعة، فاضطرتْ نيسان أن تشغلَ مكانهُ في الصيدلية ريثما يصل، جاءني بعدها مدندنًا :

_سمراء من قوم عيسى من أباح لها قتل أمرءٍ ....

دارت الأيام و نيسان تخرجُ من قمقم حزنها يومًا بعد يومٍ، الحُزن المعلق على واجهة الروح؛ ليبقى الجزء الاعظم منه مخبئاً تحت السطح كجبل جليدي.

قالَ مْهاوي إنها ممرضة متدربة تنتظرُ أمرَ تعيينها كمرشدة تربوية بعد ان تُنهي ستة أشهر من التدريب على التمريض وفق القانون العراقي الذي فرض هذا البند على النسوة العاملات نظرًا لشحة الكوادر التمريضية في سنيّ الحرب.

العملُ في مستوصف ناءٍ لا يشبهه في سوح المعارك، الكسورُ لا ترافقها جراحٌ، والجراح تأتي مرسومةٌ بخطوطٍ وزوايا واضحةٍ ومرتبةٍ، بينما تأتي جراج الحرب كمشاهد من لوحة تجريدية، عيونٌ مطموسةٌ وأشلاءٌ متناثرة، الدماءُ والحصى وشظايا الحديد المنصهر وحباتُ الرمل كلها متداخلة مع بعضها، رائحة البارود والأجساد المتفسخة بدلًا من رائحة مطهرات الجروح .

رغم كل ما كنت أعانيه كنتُ أبحث عن حواء، أنثى أسكنُ إليها وتسكن إليّ، تحتوي لحظات ضعفي وتربتُ على جراحي، إمرأة لا تسخر من عرجي ولا تشمأزُ من عقيرتي، تحتمل صمتي ولا تجزع من أنهار أحزاني، ترتبُ كتبي وتقرأ لي حين يغشي الدمع ناظريَّ.

في تلك المرحلة الحرجة من حياتي ظهرتْ نيسان، كنت أحوج ما أكون إلى حلم أُهدهدُ به يأسي وقنوطي، جاءت نيسان كنجمة صباح سهرت ليال طوال بانتظار أن يشرق عالمي بطلعتها، تلك الجميلة المكللة بالحزن، وضعتُ صورتها في إطار مذهّب وخبأتها في درج بعيد في وجداني بينَ الأمنيات عصيةَ المنال والأحلام التي لا يجدر بي أن أحلم بها، تركتها هناك لأستذكرها كلما ضاقت عليَّ دنياي، وكلما اجهدني إحساسي بالعجز، كنت أسمح لمخيلتي بأن تصفها لي، كقمر هارب من مجرةٍ بعيدةٍ لينضم إلى مجموعتي الشمسية، نيسان بشعرها القصير المتماوج غنجًا، وصلابة نظراتها، والكبرياء المشع من جبينها، وعينيها الواسعتين كشواطئ دجلة ببشرتها الشفافة وأصابعها الدقيقة وهي تنقر بتوتر على الطاولة عندما يغلبها الارتباك، وغمازةُ خدها الأيمن وجيدها المنحني كجيد بجعة.

كنتُ أشفق على طيفها من السكنى في قلب رجلٍ منهكٍ مثلي.
ماذا جَنَت هذه الحسناء لتشارك المسخ عزلته المقيتة؟!
يضيق صدري حين أتخيل أن لها حبيبٌ، أتقف جميلة مثلها في المحطة بانتظار قطاري ؟!
قد يعشقها شاعر لينظم في عينيها وخصلات شعرها أجمل قصائد الحب، لأعيش أنا في دنيا يأسي وحقيبة خيباتي على ظهري وصورتها مخبئة في درج بعيد من أدراج ذاكرتي أدّخرها لساعات الضيق.
رغم يأسي من وصالها كنتُ أنتهزُ كل الفرص التي قد تقربنا، أشاركها أيّ حديث يتبادله أفراد الكادر، أحاول جاهدًا أن أجرها إلى ساحتي، لكنّها لم تكن سهلة الانقياد، أمضيتُ وقتي منتقلًا بين غرفة الطبيب المعالج وغرفة الكادر التمريضي الأمر الذي ازعج سهيلة التي منحتْ نفسها صفة حارس الأميرة.
دخلت ذات اليوم، فوجدت سهيلة توشوش نيسان في موضوع يبدو مهمًا، كل ما سمعتهُ كان كلماتٍ متفرقةٍ من ضمنها:
_ جريحُ حربٍ.. بُترٌ فوق الركبة..
كظمت غيظي، وعدتُ إلى غرفتي، وفيّ رغبةٌ في إحراق سهيلة والمستوصف وكل من فيه.
تبًا لتوقيتات الأرض!
تبًا للحرب!
لماذا حدث كل هذا؟
ولماذا فقدتُ ساقي؟
ولماذا أغرمت بنيسان؟
إنها تستحقُ رجلًا متمكاملًا لاجريح حرب...

وفي الصباح التالي لم أرد لسهلية تحية الصباح ورفضتُ كوب الشاي الذي قدمته لي منتصف النهار، وحين استفسرت عن سبب جفائي أجبتها :

_ تعلمين يا ست سهيلة أنّ جريح حرب مثلي قد يمر بتقلباتٍ مزاجيةٍ، فيسأم من المجتمع المنافق الذي نعيش فيه.

عادت من حيث أتتْ دون أن تقولَ شيئًا، عاتبت نفسي على قسوتي معها، إذ لم تقل غير الحقيقة أنني بالفعل جريح حرب.

أكملت معاينة مرضاي لأعكف على مجموعتي الشعرية المفضلة، بدأتُ بتقليب الصفحات أبحثُ عن قصيدةٍ بعينها، تجاهلت علامتي المرجعية المثبتة عند قصيدة نهر الأحزان، وقلّبتُ الصفحات أبحث عن قصيدة شؤونٌ صغيرة:

شؤونٌ صغيرة

تمّرُ بها أنتَ دونّ إلتفاتٍ

تساوي لديَّ حياتي جميع حياتي

حوادثٌ قد لا تثيرُ اهتمامك أعمّرُ منها قصور

وأحيا عليها شهور

وأغزلُ منها حَكايا كثيرة

وألفَ سماءٍ وألفَ جزيرة

شؤونٌ صغيرةٌ...

دخل مْهاوي فجأة:

_ حالةٌ طارئةٌ في غرفة التمريض.

لم يكن من عادتي تركُ كتابٍ لي على طاولةٍ، كنت أعتبر الكتب جزءًا من عالمي وأركان قوقعتي التي أحيطُ بها نفسي، ولاأحبُ أن يطّلع عليها أحد سيما ذاك الديوان!

ركضت والكتاب لايزال بين أصابعي، هرعت إلى الطفل الساقط من علو ست درجات، فحصته وحين تبيّنَ أنّ حالته مستقرة خطتُ جرح جبينه، ثم أحلته إلى المشفى الرئيسي في المدينة، انسحبت بعدها إلى غرفتي تحاشيًا لإراقة المزيد من شعائر الحب أمام محبوبة لاأمل لي في الظفر بقلبها ..

أشعلتُ سيكارةً وثانيةً وثالثةً، كان يومُ العمل يشرفُ على الإنتهاء، حملت مفاتيحي وغادرتُ وقبل أن أصلَ البيت بدقائقٍ قليلةٍ، مرت على ذاكرتي صورة ديوان قباني المرمي على الطاولة في غرفة التمريض، تسارعت دقاتُ قلبي وشعرتُ بالدم يصعدُ إلى وجهي، يا إلهي! ماذا لو سقط الكتابُ في يد سهيلة؟! الخطوط المرسومة تحت كل كلمة نيسان وردت بين سطور الكتاب! ستكون قصة حبي على طاولة الشاي صباح الغد، توترت كثيرًا بادئ الأمر، أقنعت نفسي بعدها أن أحدًا لن يمنح الكتابَ كل تلك الأهمية سيحشرونه في درج إحدى الطاولات، ثم ينسونه مالم أذهب للبحث عنه...مْهاوي مشغول بقصة حبه المستحيلة وسهيلة حتمًا ستنشغل باستقبال الطبيبة الجديدة التي ستنضم إلى كادر المستوصف، ولا أظن نيسان انتبهت لوجود الكتاب من الأساس!

مرتْ فترة بعد الظهر بالوتيرة الثقيلة ذاتها، الاحساس بأن لا شيء سيتحرك، كل قطعة أثاث كانت هي ذاتها وتشغل المكان ذاته، منذ طفولتي الأولى،الأحاديث التي نتبادلها، فناجين القهوة المنكفئة في أطباقها، وقاموس المورد الذي صار يسكن بشكل دائمٍ على طاولة غرفة المعيشة منذ تعلمت أمي التبصير بالمستقبل بإستخدام مفرداته، الترقب الصامت المشوب بالقلق لأي خبر يرد عن صادقٍ وعائلته ...و لا جديد .

كانت حياتنا أنا وأمي كالموت السريري الذي يسبق إعلان الوفاة، ليتم فصل الجسد عن أجهزة الإنعاش التي تبقيه نابضًا.

انتهت ساعات النهار الثقيلة، نمت باكرًا وفي الصباح التالي وصلتُ المستوصف قبل الجميع ، وبينما كنت أبحث عن مفتاح الغرفة بين مجموعة مفاتيحي جأني صوتها:

_ صباح الخير .

كان صوتها يرتجف كطفل خائف، وتضرّج خداها بحمرةٍ جميلةٍ، التفتُّ فإذا بها تمدُّ الكتاب نحوي تناولته فضاعت عبارات الشكر من ذاكرتي كعادتي في مثل هذه المواقف بالكاد نطقت:

_أين وجدته؟

_ كان على الطاولة بعد أن غادر الجميع، لحسن الحظ كان ختمكَ عليه، لكنتُ حسبتهُ لأحد المرضى.

(تصفحت الكتاب إذًا؟) قلت في نفسي بينما تتسارع دقات قلبي.

_ أتعلمين نيسان أظن أن لدى ما أخبرك به، ولا ادري كيف؟ وأين؟

ازداد تورّد خديها، فأطرقت لثوان ثم نظرت في وجهي كأنها تبحث عن ردَّ مناسب، وقبل أن تقولَ شيئًا قطع المشهد صوت نشازٍ قادمٍ من كعبٍ حذاء نسائي يدقُّ الأرض بشكل مستفز، التفتُ لأرَ القادم، سيدة مبهرجة كسيارةُ عروسٍ تقتربُ منا بثوب أحمرٍ وسترةٍ سوداءٍ، يسبقها عطرٌ نفاذ، فكرت في أن أضع نظارتيّ لأرى بوضوح، لكنني أحجمت خشية أن تظنني نيسان رجلًا بصباصًا.

_ صباح الخير.
أعرف هذا الصوت، غامَ عالمي فجأة وشعرت بالغثيان، ما الذي جاء بها؟
_ ردت نيسان تحيةَ الصباح :
تفحصت الوافدةُ نيسانَ من الأعلى إلى الأسفل، ثم من الأسفل إلى الأعلى ورسمتْ على وجهها تعبيرًا ينبئ بالامتعاض.
استأذنتُ من نيسان بإبتسامةٍ ودودةٍ ودلفت إلى غرفتي دون أن أتطلع بوجه الزائرة، كان صوتها كافيًا لإثارة إستيائي.
وما إن استويتُ على الكرسي حتى بدأتُ بتقريع نفسي، ولعن نور التي ظهرت من العدم كالعفاريت كان عليّ أن أعرف كم تبقى من فترة عمل نيسان معنا و فجأة دخل مْهاوي يبتسم بخبث :
_صباح الخير، أرأيت الطبيبة الجديدة؟
_ صباح النور، نعم حصل لي شرفُ رؤيتها.
_تقول سهيلة انها منفصلة، دام زواجها لثلاثة شهور، كان طليقها مريض ذهاني فهربت منه وطلبت الطلاق.
_يبدو أنّ الجزء الأول من قصة الطبيبة الجديدة لم يصل إلى سهلية بعد!
_ أيّ جزء؟
_أحكي حين أنهي معاينة مرضاي .
غادر مْهاوي بعدها وتركني أتخبط في هواجسي .
يبدو أنّ الريحَ قد جرت بما لم تشتهيه سفينة نور الباحثة عن الرجل الذي لا ينقصه شيءٌ .
بدأ سيلُ المراجعين بالتدفق في غضون دقائق فنسيتُ في غمرة انشغالي أمر نور وطليقها، كنت أستغل أنصاف الفرص لأطل

على غرفة التمريض، أسأل عن مريضٍ، أطلب كوب شاي من سهيلة، كنت كعبّاد الشمس أُيمم حيثما يكونُ شعاعها.

انتهى يوم العمل وبينما أنا أجمع حاجياتي اقتربت قرقعة ذلك الكعب المستفزة، فظهرت بباب غرفتي، دخلت قبل أن أسمح لها... كان بابُ غرفتي مفتوحًا على سعته ونورٌ تقفُ ونصفُ وجهها إليّ والنصف الآخر إلى الممر الفاصل بين غرفتي وغرفة التمريض حين خرجت نيسان برفقة سهيلة، رفعت سهيلة حاجبًا وأخفضت الآخر في إشارة تعني (مادةٌ صحفيةٌ دسمةٌ)، تبعتها نيسان متظاهرةً بأنها لم تلحظ باب غرفتي المفتوح، ثم غادرتا بعدها بهدوء.

بدأت نور بالحديث :

_ ما أخبارك يا أمين؟

أجبتُ بجفاءٍ ممزوجٍ بمرارةٍ يغلفها بعضُ السخرية :

_ أنا بخير، لا تشغلي بالك بي.

نهضتُ من على كرسيي وتركتُ مفاتيحي تتدلى بين أصابعي، لتخرخشَ بصوتٍ مزعجٍ يوحي بأنني أهمُ بالمغادرة وإقفال الغرفة، أسلوبٌ مهذبٌ لطرد من أقصاني خارجَ حياته بمنتهى الوقاحة.

غادرتُ مسرعًا إلى سيارتي، كانت خطواتي مسرعةً لدرجةٍ أن الساق الخشبية آلمتْ عقيرتي، تكدّر يومي وأمضيتُ فترةَ بعد الظهر في عبّ أكواب

الشـــاي، ومـــجّ أنفـــاس الســـكائر، حتـى انتصـــف الليـــل وغلبني النعاس.

بعـــد أيـــامٍ قليلـــةٍ، كانـــت النســـوة متجمهـــراتٍ عنـــد بـــــاب الطبيبـــــة النســـــائية الجديـــــدة ويتقـــــاطر المراجعـــون علـــى بـــابي، دخـــل علـــيّ مْهـــاوي، جـــاء ليحـــــدثني عـــــن عيـــــادةً شـــــاغرةً تحتـــــاجُ لطبيـــــب يشـــــغلها، أعجبتنـــي الفكـــرة وتواعـــدنا للقـــاء تلـــك الليلـــة والإتفـــاق بشـــأن تفاصـــيل فرصـــة العمـــل تلـــك.

قلتُ لمهاوي قبل أن ينصرف:

_ مهـــاوي...كم تبقـــى لنيســـان عنـــدنا؟ متـــى ســـتنتقل إلى عملها الدائم ؟

_ نيســـان! لقـــد اســـتلمت أوراق إنهـــاء خـــدمتها لـــدينا هذاالصـــباح، وقّـــع لهـــا المـــدير، ودعتنـــا وراحـــت، مسكينة ستعملُ في قريةٍ تابعةٍ لمحافظةٍ أخرى.

_ كيف هذا!؟

_ هكـــذا ..لاعليـــك أعـــرف القريـــة، ولـــي فيهـــا معـــارفٌ وأصدقاء.

انصرف مْهاوي وتركني أحادث خيبتي:

لماذا أنا متخاذلٌ لهذا الحد؟

لماذا لم أصرّح لها بحبي؟

كنـــتُ علـــى الأقـــل ســـأحرر نفســـي مـــن إســـواط النـــدم التي ستسرق سَكينة روحي لوقت طويل.

نيسان

الحياة قصيرة

لا شيءَ يعودُ كما كان، والفرصُ المهدورةُ لن تتكررَ، ولحظاتُ الود والألفة التي لم تجر كما يجب لن يُعادَ تصويرها كما في أفلام السينما، لا وجودَ لطبعاتٍ مستقبليةٍ ونسخٍ معدلةٍ من حيواتنا ولا أمل في تلافي أخطاء الماضي المقصودة والعفوية، لاسيما تلك التي حفرتْ على جدران القلب أخاديداً وتركت في الروح ندوبًا مؤلمةً...لحظاتُ الود لا تُعوض، نموتُ بعد رحيل من نحبُ ألفَ مرةٍ حين ندركُ أنّ شمسَ الغد لن تشرقَ على مواعيد السعادة المؤجلة...

ها أنا أقضي محكومية الميتات الألف التي قُضيَ عليّ بها؛ لإعتقادي أنّ الحياةّ طويلةٌ، وأنّ أبي لن يموت..ها قد ماتَ بغمضة عينٍ، وتركني وسهمُ الندم مغروسٌ في فؤادي، يزدادُ جرحه عمقًا كلما خفق قلبي، مبررات القطيعة التي كنتُ أحتالُ على عقلي بها في حياته لم تعد تجدي نفعًا الأمرُ مختلفٌ بعد الموت، الموتُ مرٌّ، مرٌّ لدرجةٍ تهونُ أمامه الكثيرُ من أوجاع ومرارات الدنيا، تتقزمُ القصصُ أمام فاجعة الرحيل، لنجدَ أنفسنا نصفحُ ونعفو وقد ننسى كل ما مضى من خصام وتحامل ضمرناه يومًا لحبيبٍ غابَ عن دنيا الوجود.

لم تعد ترّهاتُ بنت السكران والجديلة المقصوصة تجدي نفعًا أمامَ توجعي على رحيله دون وداعٍ .

تموتُ كلُّ الألوان حينما يخيّم الحزنُ فلا تعود الأزهارُ حمراءٌ وصفراءٌ ووردية ٌولا الأشجارُ خضراء،...تتدرج كل الموجودات ضمن الطيف الرمادي؛ ليقف اللونُ الأسود على قمة الهرم

فتكونَ ثيابُ الحداد العلامةَ الفارقةَ الوحيدةَ في عالم تكسوه صبغةُ الدخان.

عدتُ إلى عملي بعد أسبوع العزاء، كنت أمشي بين الناس جسدًا بلا روحٍ، عاجزةً عن الإحساس بمن حولي، حتى وارداتُ الحسّ البسيطة كالبرد والحر والجوع والعطش، ظنَّ جسدي عليَّ بها ،لكنه ديدن الأيام تمضي غيرَ مكترثةٍ بمعاناة من يعيشونها، لم تتوقفْ الأرضُ عن الدوران إكرامًا لحزني ولم تحجبْ غيوم داكنةٌ شعاعَ الشمس تضامنًا مع حدادي، لا شيء من هذا حصل. كان علي أن أتناغم مع إيقاع دوران الأرض، لا أملكُ إلا نفسي وعملي عليّ أن اختار إما العيش في النور أو العودة إلى غيابة الظلام حيث لا شيء سوى المزيد من جلد الذات وأليم الذكرى.

بوسع صخب الحياة أن يفصلك عن معاناتك فتخدَر أوجاعك وتسلى لبعض الوقت، تعيش مع قصصهم وتدو في مداراتهم حتى يغادروك لتعاود الدوران حول قصصك الحزينة منها والسعيدة، المضحكة والمبكية، هكذا بالضبط نتشاغل بمن حولنا عما فينا، فنفرُّ من عتمة وحدانيتنا إلى صخب الرفقة المضيء.

اندمجتُ مع مجتمع عملي الصغير كيلا أطوف حول ذكرياتي وحزني، أحاديثُ سهيلة ونمائمها، وقصائدُ مهاوي وقصةُ حبه المستحيلة للمعلمة المسيحية في المدرسة القريبة، والطبيُب الجديدُ المنضم لكادرنا، تقولُ سهيلة إنه كان ضابطًا في الجيش وقد سُرّح بعدما بُترت ساقه، وأن شبهةً شبه مؤكدة تدور حولَ هروب أخيه الأكبر خارج البلاد...

فكرت، أنه يشبهني مكسورٌ مثلي، لا تأتيهُ السعادة على طبقٍ من الفضة، سيتعيّنُ عليه أن يصنع هناءهُ من الصفر بنفسه .
كان مهذبًا دمثَ الطباع لا يميل للإنسياق لتيار الجمع، يقدسُ حيزهُ الشخصي، ميّال للصمت مقتصدٌ بالكلمات له عينان مهذارتان لا تكتمان لقلبه سرًا تُخبران عنه الحزنَ والألمَ الإعجابَ والكدرَ والشوق والقلق ...
كان المحاربُ السابقُ يحملُ سحرًا آسرًا كالذي لدى أبطال القصص الكلاسيكية، له قامةٌ معتدلةٌ وسمرة بلون الفخار تُشعرك أن الصلابة التي عليه إنما أورثتها قسوة التجارب، تضفي الغضون الموسومة على جبينه إلى طلعته المزيد من الجدية وتعلو حاجبه الايسر ندبةٌ لجرح قديمٍ بقطبٍ غير متقنة، تجبره إصابة ساقه على عرجٍ يجهد لإخفائه، اعتادَ تصفحَ كتيبٍ أو ديوان شعرٍ كلما سنحت وتيرةُ العمل...كان يشبه الصورة النمطية للمحارب المهذب الأنيق الذي اغتالت الحرب الكثير من أحلامه.
كان سيعجب أيّة فتاةٍ في ظروفٍ غير ظروفي، أيّ بنت كانت ستعيش معه قصةَ حبٍ جميلةٍ، قصةٌ لا تنتهي حين يعلمُ أنّ حبيبته (بنت حميد السكران)، أوصدت أبواب قلبي أمام إعجاب المحارب السابق بجدار جليدي، متجاهلة كلّ محاولاته للإقتراب مني وتوطيد معرفته بي، لتكونَ علاقتي به مقتصرةٌ على تبادل التحية وتجاذب أطراف أحاديثٍ عامةٍ كأي زميلين يعملان في المكان ذاته، لم أكن لأنجرفَ وراء أحاديث قلبي، كنت أخشى المزيد من الإقتراب، مزيدٌ من القرب كان يعني لي مزيدًا من الخيبة .

كان ينتهزُ كل الفرص ليطلَّ على غرفة التمريض كذَّبتُ حدسي خوفًا من انهيار قصور الرمال، حتى وقعت يدي ذاتَ يومٍ على ديوان شعرٍ كان قد نسيهُ مرميًا (على غير عادته) على طاولة الضماد في غرفة التمريض بعد أن أسرع لتقطيب جرحٍ نازفٍ في جبين صبي في التاسعة من عمره، غادر بعدها مسرعًا، انشغلتْ سهيلة بالثرثرة مع مْهاوي، فأخذتُ الكتابَ وخبأته في درج الطاولة ، فكرتُ إنه قد يعود باحثًا عنه لكنه لم يفعل وقبلَ موعد الانصراف وضعتهُ في حقيبة يدي، همس صوتٌ في عقلي يحثني على تصفح الكتاب، قاومتُ بادىء الأمر لكنّ دفاعاتي إنهارت أمامَ فضولي الأنثوي فبدأتُ أُنقّب في ديوان شعر المقاتل الحالم.

كنت أعلم أن أبي قد أقتبس اسمي من قصيدةٍ لنزار قبّاني، كبرتُ وأنا أكرهُ نزار، كانت كلماتُ قصائده تقترن برائحة الخمر المنبعثة من أنفاس أبي، في دستور ذاكرتي تأتي أبيات نزار قبّاني قبل أن يبدأ الجنون.

بدأت بتقليب صفحات الكتاب، وتوقفت عند علامته المرجعية فكانتْ قصيدة "نهر الأحزان"

" بدأت بالقراءة ووقفت عند المقطع الثاني من القصيدة، من هاهنا أخذ أبي الاسمَ ومنحني إياه :

سفني في المرفأ باكيةٌ تتمزّقُ فوقَ الخلجان ومصيري الأصفرُ حطّمني حطّمَ في صدري إيماني أأسافرُ دونك ليلكتي؟ يا ظلَّ الله بأجفاني يا صيفي الأخضرَ يا شمسي يا أجملَ.. أجملَ ألواني هل أرحلُ عنك وقصّتنا أحلى من عودة نيسان؟ أحلى من زهرة غارديني في عُتمة شعر إسباني

يا حبّي الأوحدَ.. لا تبكي فدموعُك تحفرُ وجداني إني لا أملكُ في الدنيا إلا عينيك ..و أحزاني أأقولُ أحبك يا قمري؟ آهٍ لو كان بإمكاني."

خطوطٌ كثيرةٌ كانت تحت كلمة (نيسان)،وبخطه الذي صرت أعرفه كان اسمي منسوخًا عدة مرات على جوانب الصفحة وهامشها، رقص قلبي طربًا حتى طرحَ المنطق تساؤلاته المتشائمة :

_هل سأظل نيسانته حين يعلم أني ابنة السكرجي؟

_هل سيحمل لي نفس المشاعر وقتها أم سينصرف باحثًا عن فتاة أخرى بتاريخ عائلي أنصعُ بياضًا؟

تبخر احساسي بالجذل والسعادة بحب أمين لي وعدتُ نيسان التي لا تثق إلا بالوقائع الثابتة على الأرض، كنت عالقة بين اعتراف غير مقصودٍ بالحب و بين القلق من الخطوة التالية، وأحلام السعادة المقبلة التي راودتني رغم نظرتي القاتمة للحب وقصصه...تحطمت دفاعاتُ قلبي وذابٍ الجليد المتراكم حول شرفات وجداني تلك الليلة، فوصلتُ ليلتي بصباحها ولما حان موعد خروجي للعمل تأكدت أن كتابهُ يستريح في حقيبة يدي، حملت حاجياتي وخرجت.

حين وصلت كان أمين يفتحُ باب غرفته مشيت صوبه ألقيت التحية فالتفتَ وحيّاني مبتسمًا، استخرجت الكتاب ومددته إليه إرتبك أولًا ثم عبرَ وجهه ظلُ سعادةٍ، قال إنّ لديه ما يخبرني به، كنت أبحثُ عن كلماتٍ مناسبة اجيبهُ بها...أفكرُ كيف وأين ومتى سنلتقي؟ وماذا سيحكي ؟

ثم انطفئ الموقف!

لا أدري لماذا تتداخل لحظات الوصال مع بواكير الغياب؟ ولماذا تختلطُ روعةَ الربيع مع قسوة القيظ؟ ولماذا يزمجر الرعد مع عزف المطر؟ ولماذا تنبت الأشواك في لاحة الورد؟ ولا فرحةً تكتمل.

كان أمين يتكلم وعيناه تبتسمان، وتحكيان في الحب ما يعجزُ عن تسطيره قلمٌ، حين اقتربت تلك السيدة تطرق الأرض بكعب حذائها بشكل أعلى من المعتاد وكأنها تريد أن تقول:

_ توقفا لقد انتهى العرض، أنا هنا.

اختفت إبتسامة أمين وتكدّر وجهه وكأنّ عاصفةً ترابيةً تقترب منه.

لم أفهم ردّ فعله، انسحبت إلى عملي وتركتهُ مع الوافدة الغامضة التي علمتُ من سهيلة إنها طليقته التي إنفصلت عنه بعد إصابته في الحرب؛ لتتزوج برجل اتضح بعد الزفاف إنهُ ذهاني فعادت إلى بيت أهلها بعد تجربة إنفصال مريرة.

كانت سهيلة متفائلةً جدًا لصالح عودة نور لأمين ، قالتْ

_حتمًا سيعودان لبعضهما.

ثرثرت بكل القصص الرومنسية التي قرأتْها أو شاهدتها على شاشات التلفاز عن عشّاقٍ افترقوا ثم عادوا لبعضهم .

كنتُ سأضحكُ منها لو لم يكن أمين طرفًا في المعادلة، لكن تكهناتها أجهزتْ على آمالي .

ظلَّ أمين متجهمًا ولم يجب دعوة سهيلة لشرب الشاي ذلك اليوم، وفي اليوم التالي احتل موضوع نور وأمين طاولة نمائم سهيلة ومْهاوي، قال مهاوي إن زواجهما لم يتمْ بالفعل كانت خطوبة فقط، وإنّ نور رفضت إتمام الزواج بعد أن فقد المحارب ساقه في الحرب، تحدث مْهاوي بمرارة عن غدر امرأة وقفت أمام القاضي تطالب بتطليقها من رجلٍ شريف لأنه أصيب في الحرب، أطرقت سهيلة كمن لا يملك أية دفاعات...هكذا سقطت نظرية الحب العائد من رحلة اللاّرجوع التي روجت لها سهيلة ذات الصباح، سقطت دون مقاومة تُذكر.

كانت نورتعمل بجدٍ، لاحقت أمين كطريدة كانت تقف حيثما يكون، تحرسه كاللبوة المتيقظة حتى غادرتُ مستوصف الوطن إلى وجهتي الجديدة.

مدرسة النخيل

نيسان

انتهتْ مدةُ تدريبي في مستوصف الوطن للرعاية الصحية، لم يرجع أمين لموضوع الحديث الذي علينا أن نتبادله، ربما انتفت الحاجةُ للكلام حين ظهرتْ خطيبته السابقة وقد انفصلتْ عن زوجها، ربما بَطُل التيمم حين حضَرَ الماء! من يدري ؟

صدرَ أمرتعييني كمرشدة تربوية في مدرسة قرية بعيدةٍ، حملتُ أوراقي وذكريات الوطن، وغادرت دون جلبة إلى مضمار جديدٍ لأثبت جدارتي وأحقيتي بالوجود على أرضه .

أنا التي كنت سأعود أدراجي حين ضللت الطريقَ إلى مستوصف الوطن الذي بالكاد يبعد بضعة كيلومترات عن بيتي، التحقتُ بعمل جديدٍ يبعد حوالي مئتي كيلومتر عن مدينتي .

تُغيرنا التجاربُ فنكبرُ بسرعةٍ دون انتظار اكتمال دورة الأرض حولَ الشمس، نكبرُ حين نواجه الحزنَ لوحدنا دون الإتكاء على حائط قريبٍ، نكبرُ حين نمضي قدمًا في طريق لا ندري إلى أين يُفضي، نكبر في الوقت الفاصل بين اختيار الطريق واتضاح الوجهة، نكبر حين نعلق بين براثن أقدار أليمة ما لنا إلى تغييرها سبيلٌ، نكبرُ حينما نبحث عن وصفٍ لما نكابده فلا نجد الكلمات ...

إنها الساعةُ الثامنة ودقيقتان من صباح يوم الثلاثاء المصادف الأول من كانون الأول عام١٩٨٧ وقفتُ مع علاء بباب بنايةٍ من طابقٍ واحد يخفقُ على سطحها العلمُ العراقي بنجماته الخضر الثلاث

"مدرسة النخيل الإبتدائية المختلطة تأسست عام ١٩٧٨ "
فناءٌ مستطيلٌ تحيطه الصفوفُ من ثلاثة جوانب .
إصطف التلاميذ في خطوطٍ أفقيةٍ وسط الساحة منهم من يرتجف، ومنهم من ينفث البخار في كفيه؛ ليتدفأ من صقيع كانون ،تقدمتْ نحو الطابور سيدةٌ طويلةُ القامة بمعطفٍ طويلٍ يلفُّها وشاحٌ صوفيٌ سميكٌ، تتبعها أخرى تبدو أقل تشنجًا .
تكلمت الأولى عبر مكبر الصوت قائلةً:
_النشيدُ الوطني .
فأنشد الاولاد والبنات في جوقة غير موحدة:
_وطنٌ مدَّ على الأفق جناحا...وإرتدى مجدَ الحضارات وشاحا...
بوركت أرضُ الفراتين وطن ... عبقريَ المجد ...
توقف النشيدُ بإشارة من المديرة التي تكلمت عبر مكبر الصوت لتقول :
_ تمرُ علينا هذا اليوم ذكرى...
طقطقَ الميكروفون لثوانٍ قليلةٍ حاجبًا خطاب المديرة عن مسامع الحضور، ثم توقف الضجيج ليخرجَ صوتها قائلًا:
_ في سبيل الوطن.
زعقَ مكبر الصوت بعد ذلك مُطلقًا صريرًا معدنيًا عاليًا والمديرة تسترسلُ في إلقاء كلمتها وبعد دقيقةٍ أو أقلّ هدأ مكبر الصوت، صدح صوتها قائلةً :
_ الشهداء أكرم منا جميعًا .
فردد التلاميذُ خلفها بصوتٍ واحد هذه المرة:
_الشهداءُ أكرمُ منا جميعًا.

كنتُ لَحْظَتَها في أضعف حالاتي وأحوج ما أكونُ للبكاء لكنني كنتُ كغيمة محملة بالغيث نفختْ بها الريحُ لترسلها الى سماواتٍ بعيدة دون أن تذرفَ قطرة مطرٍ واحدةٍ، تذكرت أخي الذي لم تمهله الحربُ ليضغطَ على الزناد، وتذكرتُ قوافلَ الشهداء التي زُفتْ إلى حتوفها، والبيوتَ التي تفتقد أبناءها، وغرفةَ العروس التي لم تشهد الزفّة والهلاهل ونثر الجكليت، والأفراحَ التي تحولت إلى مآتمٍ، والمقتنيات التي كُتب لها أن تعيش أكثر من أصحابها.. مشاعرٌ جمعناها في زهرةٍ من دمٍ بين قبتين بلونٍ السماء نعلقها على قمصاننا صباحَ الأول من كانون الأول من كل عامٍ .

انتهى الطابورُ وانصرفَ التلاميذُ إلى صفوفهم، تبعتُ المديرة ومعاونتها، دخلتا وأنا بأثرهما إلى غرفةً صغيرةً بأرضيةٍ عاريةٍ تتصدرها طاولةٌ خشبيةٌ بطلاءٍ باهتٍ، وحوافَّ متقشرةَ وكرسيين بمساند وتنجيد سيء، واريكة خشبية تستند إلى الشباك المطلّ على الساحة.

ناولتُ المديرة أوراقي، أخذتها مني ووضعت نطارتها وراحت تقرأ وتهمهم بحروف غير مفهومة، ثم أطلقت ضحكةً مصطنعةً وقالت :

_ مديريةُ التربية ترسلُ لي مرشدةً نفسيةً، ومدرستي تعمل بمجهود معلمةٍ واحدة! همٌّ مضحكٌ وهَمٌّ مُبكٍ.

تكلمت المديرة كطفل مغتاظ من ولادة أخيه الصغير، وبعد صمت دام أقل من دقيقة ونظرتين تحذيريتين أرسلتهما إلى معاونتها المبتسمة صرّحتْ المديرةُ :

_ستباشرينَ غدًا، لكنك لن تعملي في الإرشاد النفسي، ستدرسين القراءة والرياضيات لطلاب الصف الأول الابتدائي، إن كان ذلك يعجبك!

فخرجَ صوتي للمرة الأولى منذ غادرت بيتنا :

_ موافقة، فأنا أحب تعليم الصغار ..

بانت الخيبة على وجه المديرة، كأنها كانت تتمنى لو أحمل حقيبتي وأمتعتي وأرجع من حيث أتيت .

غادرَ علاء بعد أن اطمأن عليّ، وعدني بالعودة لاصطحابي بعد أسبوعين .

مشيتُ خلف العاملة التي حملت أمتعتي إلى بيت المعلمات، وهو بيت طيني بناه الأهالي في فناءٍ جانبي تابعٍ للمدرسة .

دخلت أجرُّ حاجاتي، رائحة العطن المنبعثة من أجواء الدار جعلتني أشك أن جوربًا متسخًا قد نُسيَ في زاويةٍ ما...هنا أو هناك، يبدو أنّ الشبابيك لم تفتح منذ أسابيع .

أسرّةٌ حديدية صدئة ومراتب إسفنجيةٌ تغطيها شراشف كانت بيضاء ذات يوم، وطاولة صغيرة ودولابٌ خشبي من الطراز الذي كان موجودًا في معظم المدارس ذلك الحين، مجموعة كتب منضودة على طاولةٍ جانبيةَ، الأرضية مغطاة ببساط مترب.

يميلُ الناسُ إلى تطبيع الأوطان الصغيرة ببصماتهم الشخصية، المتدين رسمَ علامة على الحائط تدل على اتجاه القبلة، وعاشق لموسيقى البوب وضعَ على الجدار المجاور لمنامه صورةً لمايكل جاكسون، ومتذوق الموسيقى العربية نسيَ شريط كاسيت لكوكب الشرق أمُّ كُلثوم.

بدأت من فوري بتنظيف الغرفة وتهويتها ونفض البساط وإزالة صور مايكل جاكسون وملصق فيلم الشعلة، الفلم الهندي الذي مثّل أقوى إنتاج سينمائي هندي آنذاك.

عادت المديرة مع معاونتها بعد ثلاث ساعات إلى دار المعلمات، ابتسمت المعاونة حينما وجدت الوضع متبدلًا في الدار، بينما لوَت المُديرةُ شفتيها ونفضت كفها الأيمن في حركة تذمريةٍ، بدت كأنها تطرد ذبابة افتراضيةً تطنُّ أمام وجهها.

نمتُ بعد الظهر نومًا عميقًا كذلك الذي يغرقُ فيه حواصيد القمح بعد يومٍ طويلٍ حافلٍ بقطع وتكديس السنابل، وفي المساء كان هنالك المزيد من الوقت لترتيب المكان؛ ليكونَ مكانًا للعيش لا مجرد غرفة في نُزل على طريقٍ مقطوعٍ بين مدينتين.

في الصباح التالي شرعت بمهمتي في تعليم ستة صغارٍ هم تلاميذُ الصفّ الأول، بعد أن تسرّب معظمهم من التعليم حين لم ترسل المديرية من يتولى تعليمهم .

ستةُ صغارٍ بأصابعٍ متيبسةٍ من البرد، وخدودٍ اكسبها صفع الصقيع قشرةً خشنةً، وثياب أقرب للأسمال منها للزي المدرسي .

كان الصفُ باردًا، وزجاجُ بعض النوافذ محطمٌ. قال أحد التلاميذ إنّ أباه يستطيع استبدال ألواح الزجاج بألواح صفيحٍ فلا تكسرها حُصيّاتُ صيادي العصافير...أمضينا بعض الوقت في التعارف، وقبل أن أبدأ درسي الأول معهم قالت بنت بضفيرتين ذهبيتين :

_ أين تُخبئينّ العصا؟

_أيّةُ عصا؟

_ التي ستضربيننا بها.

ضحكت من سؤالها، وأخبرتها إني لا أملك عصا وإنني هنا لأعلمهم قراءة القصص لا لأضربهم.

قرأتُ عليهم أنشودة كنت أعرفها من أيام الروضة أنشدتُ وأعادوا بعدي على نفس الإيقاع، كانوا سريعي الحفظ، أردت لهم أن يعودوا من يومهم الأول بإنجازٍ لا بواجبٍ، وفي اليوم التالي بدأنا برسم حرف الدال، تمهيدًا لتعلم كلمة دار..

لا أدري لماذا اراد ساطع الحصري (وهو مؤلف كتاب القراءة الخلدونية) لنا نكتب دار أولًا ؟هل كان يعلمُ أن ذكرى الدار هي التي ستصمد طويلًا بين طيات الذاكرة حين سيكبر الصغار؟ أم أنه تنبأ بالتَوق العارم الذي سيستبد بنا لمبارحة هذه الدار حين نكبر، أظنه أراد أن يكون الدار (الوطن) للجميع..

كنتُ في الفرصة أذيب حبات السكر في استكان الشاي حينَ تعالت صيحاتُ الأولاد على باب غرفة الإدارة، خرجتْ لهم المديرةُ تحمل خيزرانتها كفلاح هرَعَ ليُبعُدَ سربًا من المتطفلين عن حقله، خرجت بإثرها أبغي امتصاصَ غضبها، ومنعها من إبراح الأولاد ضربًا.

أغرتْ أشعةُ الشمس الدافئة التلاميذَ باللعب والمرح بعدما أذابت الصقيع وسمحت لدفئها أن يتسلل إلى أناملهم المتجلدة من البرد .

كان جَمعٌ من التلاميذ يقتادون ولدًا في الثامنة بجبين مدّمى، سالَ الدم ليغطيَ وجهه بالكامل، أسرعتُ نحوَ الصبية متجاوزةً المديرة وعصاها، وأخذتُ الصبي المصابَ إلى غرفة الإدارة، حمدت الله أن صندوق الإسعافات الأولية كان مجهزًا كما يجب.

(نخيل) هو ابن شيخ القرية من زوجته الثالثة إذ لم تفلح ايٌّ من زوجتيه الأوليين في منحه المولود الذي طالما حلم به، كان نخيلٌ طفلًا مشاكسًا؛ لفرط تدليله، تراهنَ ذلك الصباح مع زملائه أنّ بوسعه نطحَ الدعامة الكونكريتية المنتصبة أمام صفه عشرة مرات متتاليةٍ دون أن يبكي فشُقَّ جبينه في المرة الرابعة، قطبتين وضماد وبضع قطراتٍ من المادة المطهرة، وعاد نخيل إلى صفه مزهوًا بالندبة التي سترافقه حتى كهولته.
في الأسبوع التالي انضم إلى تلاميذي الستة ثلاثة آخرون، كنت أدخلُ الصف في الثامنة ولا أبرحهُ إلا بعد أن ينتصف النهار، ثم يأتي المساء خاويًا من كل شيء إلا من الهواجس ومزيدٍ من التساؤلات، أكرهُ أن أفرغَ من عملي؛ الفراغ يتركني فريسة للتخبط، تحاصرتني افكاري فأهربُ منها إلى فناء المدرسة، فتمنحني السماء فضاءً أوسعَ للرؤية وإنعتاقًا من المخاوف، كنتُ أهرب من أحاديث نفسي إلى فضاء الله وزرقة سماءه، يلسعني البردُ أولَ الأمر لكنني سُرعان ما أنسى ارتجافي أمام الريح حين تجرفني الخواطر والتكهنات وحسابات المنطق بعيدًا عن الزمان والمكان وحالة الطقس، لتتقاذفني التساؤلاتُ الأكثر إلحاحًا:
_ ما الذي حلَّ بأمين؟ هل نجحتْ خطيبته السابقة بإعادة حبال الود التي انقطعت بينهما ؟
هل كان يحبني بالفعل؟ خط بقلم حبرٍ تحت كلمة من بين الاف الكلمات في ديوان شعر...
أهذه قصةُ حبي؟!
خطوطٌ وكلماتٌ لا تمنح أي عهدٍ أو ميثاق...

وصل علاء على موعده بعدَ أسبوعين ليصحبني في أول اجازة لي إلى البيت، استقبلتنا المدينة بشتاءها المثقَل بالأحاديث، كصديق قديم يَعدُ بسرد الكثير من الحكايات وهرق المزيد من طقوس الحنين .

أوقف علاء أول سيارة أجرةٍ ، خاطبَ السائق من خلال النافذة :

_ حاوي الكنيسة ؟

الحاوي هي الأرض المنخفضة التي تحوي مياهَ الفيضان، اشترى جدي قطعة أرض منبسطةٍ على كتف المنحدر المؤدي إلى أرض الحاوي حيث كنيسة مار ميخائيل وتلّ الشياطين، وحين اقترن أبي بأمي كان بيت العائلة هنا في نزلة الحاوي كما يسميها الموصليون .

سرنا معًا أنا وأخي كأننا عائدين من المدرسة وكأن الزمان لم يمر.. بدا بيتنا من بعيدٍ كوحشٍ أسطوري يجثو مستندًا على قائمتيه الأماميتين. عالج علاء الباب المغلق دون اللجوء إلى طرقه وإحداث ضجة، أطلت أمي من باب المطبخ، كان وجهها شاحبًا وتظللُ عينيها هالاتٌ معتمةٌ مُلقيةً على طلعتها ظلًا قاتمًا لحزنٍ عميقٍ لا سبيلَ للفكاك منه، تكاثر شعرها الأبيضُ كدغل في بستانٍ مهملٍ، وهي التي كانت صبغة الشعر الشقراء لاتفارقها، تساءلت في نفسي ما الذي استجد؟ تبدو أمي أسوء حالًا مما كانت عليه حينما كانت الكدمات تغطي وجهها، أيعقل أنها تفتقد أبي؟

أيفتقد السجين سجّانه ؟

أيقظتْ رائحةُ الزعتر وزيت الزيتون المنبعثة من مائدة الإفطار الذكريات الدافئة ،الروائح تفتح في

قلوبنا نوافذًا حسبناها أوصدت من زمان، يعبقُ مطبخ أمي برائحة الزعتر وزيت الزيتون كل صباحٍ، طقسٌ صباحيٌ نابع كونها فلسطينيةٌ، وحين ينتصف النهار تفوح من شباكها رائحة الرز العنبر كسيدة عراقية بإمتياز، عراقية بالعشرة كما اعتادت أن تصف علاقتها بكل ما هو عراقي.

العشرة تمنح الهوية في بعض الأحيان .

في المساء خرج علاء فجلست معها إلى صينية الشاي في غرفة المعيشة، كنتُ عاجزةً عن تبادل حوارٍ يدوم لأكثر من سؤالٍ مني وجوابٍ منها، كأن حاجزًا غير مرئي يفصلني عنها...ترتطم كلماتي وترتد إليّ من جديد، رسائلُ الحب التي ترسلها لي عيناها الحزينتين تخفيان الكثير من العتب، لقد خذلتها في العديد من المواقف لم أكن يومًا ابنة أمها، البنت التي تنصت للشكوى وتمسح على الجراح وتجفف الدموعَ...ثم انطويت على نفسي بعد الصدوع والشروخ التي أصابت بيتنا عقبَ رحيل صفاء .

شعرت للحظةٍ أني بالكاد أعرف السيدة التي تشاركني لحظتي، بادرت قائلةً:

_ ماذا هناك أمي؟ لا تبدين بخير ؟

_ أنا بخير، لكن رحيلَ ابوك يؤلمني؟

_تفتقدينه! ؟

_كثيرًا! افتقدهُ كثيرًا جدًا، أتعلمين نيسان ؟ لقد كنتُ أدعو الله أن يأخذَ روحهُ كل ليلة، كنت

أتـوق للصـباح الـذي سـألامس بـرودة المـوت في كفـه، تمنيـت فـي كـل مـرة وقفـتُ فيهـا جنبـهُ لأسـنده بينمـا يسـتفرغ خمـر جوفـه بعـد ليلـة سـكرٍ أن يختنـق، أن يأخـذ نفسًـا ولا يعطيـه، لكنـه لـم يمـت أيـام مقتي وكراهيتـي لـه ...مـات حـين تغيـر، مـاتَ حـين أنسـتُ لوجـوده مـن جديـد، مـات حـين تمنيـت لـو أنّ الزمـان يطـول ولا ينقلـبَ الحـالُ، مـات حـين سـألت الله بكـل صـدقٍ أن يغفـر لـه كـل مـا اقترفـه بحقـي، غـادرني يوم تمنيت أن يبقى جنبي إلى الأبد .

سـمحتُ لنفسـي بـأن أحلـم يـا نيسـان، حلمـت بسـنوات شـيخوختنا التـي كنـا سنعيشـها معًـا كعجـوزين تخطيـا كـلّ الصـعاب، وعبـرا كـل الأنهـار والوديـان معًـا، وآن لهمـا أن يسـتريحا، حلمـت أن نهـرم فيجتمـع الأحفـاد حولنـا، قصـص عـن الجـد والجـدة رسـمها عقلـي لمسـتقبل نمضـيه معًـا، وهـا أنـا اتعفن وحيدة في هذا البيت الكبير.

عانقـتُ أمـي وبكيـت لبكاءهـا، لقـد خـذلتنا الأمنيـات مـرتين؛ مـرة حـين غابـت عـن واقعنـا يـوم كنـا بـأمس الحاجـة إليهـا، ومـرة أخـرى حينمـا زارتنـا بعـد فـوات الأوان، بعدما انتهى زمن الحلم.

انتهـت إجـازتي القصـيرة فـي البيـت وعـدت إلـى قريـة النخيـل. تلاميـذي وعزلتـي المسـائية اسـتعينُ علـى ضـجرها بقـراءة مجلـة أوبالانصـات للمـذياع أوبمساعدة مدينة في أعمال الغزل والتطريز .

كانـــت ذكريـــاتُ مستوصـــف الـــوطن وأهلـــه تمـــرق بـبـــالي كســـحبٍ فـــي ســـماء الصـــيف، فيخفـــقُ قلبـــي شـــوقًا للمكـــان ومـــن فيـــه، لكننـــي وبعـــدما طـــال البعـــاد خلصـــتُ إلـــى أنـــي قـــد أوهمـــت نفســـي بحـــب أمـــين، وذلك الخطُ تحتَ اسمي في ديوان الشعر!

كم كنت ساذجة! لأبنيَ حُلمي على خطٍ تحتَ كلمةٍ من بين آلاف الكلمـات، انتهـى الحلـم الآن، أيُّ عاشـق ذاك الـذي سيصطبر على غياب حبيبته كل هذا ؟! لقد تبددَ الوهمُ وها أنـا اسـتعيد إتزاني مـن جديـد قـررت أن أمحـو حكايـة ديـوان الشـعر من ذاكرتي... لقد كنا زملاءَ عملٍ ذاتَ يوم وانتهى، لن أسمحَ لهذه القصة أن تلطخ بحبر الحيرة والتخبط صفحةَ ذكريات تلك المرحلة من حياتي، فلستُ أنا من تتعلق بحبال الوهم وتبني في الخيال قصورًا، لن أعيش آمالًا قصيرة العمر، لا أريدُ أن أسقط من سقف توقعاتي، سأمشي على الأرض، الأرض لا تخون ولا يعيشُ عليها إلا الواقع.

أمين

كان وجودها في حياتي كفرجة ضياء في عالمٍ مظلم، بغيابها اختفى النور من دنياي، وجفّت واحة الماء الوحيدة في قفر محيطي، حياتي من دونها تشبه كابوسًا العب فيه دور الممثل والجمهور، فأعيش المعاناة وأشاهدها في ذات الوقت، ينبض قلبي في صدرٍ لا أعرفه وتطرق دقّاته على أضلاع أشعرُ أنها لاتنتمي إليّ. كنت بحاجة ماسة للوصول إليها، والتحدث معها، لن أُعيدَ تجربةَ الإرتباط بالنيابة، لن أرسل أمي لتتفق مع أمها كما حدث مع نور، سأخوض غمارَ معركتي بنفسي هذه المرة.

لكن كيف؟

أأقف على ناصية شارعهم بانتظار أن تعودَ من العمل نهاية كلّ أسبوع لأهمس لها بكلمات الحب؟ أم أدسُّ في حقيبتها خطابات الاشتياق وقصائد الحب وسهر الليالي!؟

لقد كبرت على مغامرات كهذه!

في مطلع العام ١٩٨٨ ارتبطت نور برجل أعمالٍ معروفٍ في المدينة، رجلٌ متكامل حسبَ مقاساتها، يبدو أنها أرادت الاحتفاظ بي كلاعب إحتياطي في حال فشل مشروع إقترانها بالرجل المتكامل الجديد.

توطدت صداقتي بمْهاوي، كان يأتي كل يومٍ ليحدثني عن حبه المستحيل وعن معارضة أهله وأهل البنت لفكرة وجود مشاعرٍ تربطهما .

جاءني ذاتَ يومٍ أواخر كانون الأول يبكي بعد أن قرّرَ أبوه تزويجه من ابنة عمه لصرفه عن حبّ فتاته الكتابية، حدثتُهُ بالمنطق كيفَ أنّ حبه للبنت المسيحية لا يشبه الواقع في شيء

وإنه لا يصلح إلا أن يُكتَب في قصص الحب الخيالية، ولكنْ أيُّ منطق ذاك الذي سيعقله عاشقٌ غيبت خمرُ الصبّابة عقله وكلّ حواسه؟

بعدَ أسابيعٍ قليلةٍ حضرتُ زفاف مْهاوي، كانت تلك أول مناسبةٍ سعيدةٍ أحضرها بعدَ إصابتي، حضرَ العرسَ رجلٌ من القرية حيثُ تعملُ نيسان، تحدث مْهاوي إليه عن نيسان وأمّنه أن يبلغها السلام منه ومني _تطوع مهاوي بإشراكي في المهمة_ أوصى الرجلَ أن يعتني بها ويحرص على سلامتها ويمدّ لها يدَ العون إن احتاجتْ، شدَّد مهاوي في حديثهُ للرجل على أنه يكن لنيسان من الود والإحترام ما يكنهُ الأخ لأخته.

كم وددت لو أني أملك جرأةَ مْهاوي لأكون أنا من يوصي بها، ويرسلُ إليها التحية لكنني قصّرت، إذ لم أحُز أيةَ صفةٍ تمنحني حقَّ التواجد في عالمها، استطاع مْهاوي أن يعربَ عن وده لها فهو لا يملك ما يخفيه، ولا يخشى أن يرَ الناسُ الوجدَ في عينيه، أما أنا فخشيت أن يلحظُ محدثي إرتجاف صوتي ورعشةَ أصابعي وأنا أحدثه عنها، فيحزر أني أحبها، وأني أحترق وأستحيل رمادًا تذروني رياحُ إشتياقي لها.

عاودني حينها إحساسي بالعجز ذاكَ الذي كبلني منذ أكثر من عام.

غادرتُ الحفل وكلي حيرة كيف سألتقي بها؟ هل أطرق باب أهلها هكذا دون سابق ترتيب؟

وماذا لو رفضتني؟ أخي المشتبه بهروبه خارج البلاد، وساقي المبتورة، كلها أسبابٌ وجيهةٌ للرفض...عليّ أن أراها وأحدّثها.

ولكن كيف؟ وأين؟

عادتْ آلةُ أيامي تدورُ بعجلاتها وتروسها الملعونة تلفني دون رحمةٍ وتسلبني حقي في العيش. أعملُ صباحًا في مستوصف الوطن، و بعد الظهر أعملُ حتى ساعة متأخرة من المساء في عيادة خاصة، لأعود بعدها إلى البيت حيث أمي وفناجين القهوة المقلوبة أملًا ببشارةٍ تلوحُ في قعر فنجان، والسؤالُ عينهُ الذي تعيده على مسمعي كلّ ليلةٍ بصيغ مختلفة :

_ ألم تصل من أخيك رسالة؟

_ ألم يأتي من أخيك مرسال؟

_ألن تذهب للبحث عنه؟

كانت عينا أمي تقولان أن حياتها انتهت بإختفاء صادق، صادق شمعةُ البيت ودرةُ التاج وعينُ القلادة...

من أنا لاملأ الهوَّ الشاسعَ الذي خلَّفهُ غيابه ؟

وأنا الصموت الكئيب وفوقَ ذلك مُعوّق .

كنتُ أهربُ من مرارة محيطي إلى عملي، فتلتقمني دوامةُ العمل التي لا ترحم، تمنيت الفرارَ خارج إطار تلك اللوحة الكئيبة التي وضعتني فيها الحرب، أن أعيشَ في عالمٍ موازٍ لا حربَ فيه ولا ذكريات، صفحة جديدة أبدأ فيها من جديد...

كان الربيعُ يطرقُ الأبواب حين جاءني مهاوي مبتشّاً، بعد أن كلفته بالسؤال عن نيسان للتأكد من كونها غير مرتبطة، انبرى يسردُ لي حصيلته الإخبارية بذات الود والاحترام الذي طالما حمله

لهـا، شـرع بسـرد تـأريخ عائلتهـا بـدأ بالحـديث عـن أبيهـا وهـو مـدير مدرسـة، وعـن استشـهاد أخيهـا ومعـاقرة إبيهـا للخمـر بعـد رحيـل الابـن البكر...تحـدثَ مْهـاوي بتعـاطف واسترسـل فـي سـرده مستعرضًـا مهاراتـه الاسـتخبارية متطرقًـا لكونهـا مـن أم فلسـطينية هـاجرت مـع أهلهـا إلـى العـراق بعـد نكبـة ١٩٤٨،وأنّ أخاها الأصغر يدرس في كلية القانون ... قاطعته :

_ مرتبطة يعني؟ تكلم يا أخي يبستَ حلقي ؟

_ لا مخطوبـة ولا عنـدها حبيـب ولا مرتبطـة، اطمأن وإمض لما أنت ماضٍ إليه .

قـررت أنـي سـإنطلق فـي الغـد لأرمـي هيـامي وكلفـي بهـا تحت قدميها ولها أن تقبلَ بي أو ترفض .

زوّارُ الفجر

نيسان

في فجر أح الأيام من شهر شباط، استيقظت على صوت بابُ الدار يُطرقُ بعنف، انتفضت من منامي هلعة، نادت مدينة من مكانها:

_ من هناك؟

_ صديقة.

ارتخت ملامح مدينة المتشنجة حين سمعت صوتًا أنثويًا، وتناولت رداءها الشتوي وذهبت لتفتح الباب :

كانت امرأة ذات قامةٍ متوسطةٍ متشحة بعباءة سوداء لا تظهر إلا وجهها وكفيها ...

_ لقد قدمت إلى هنا من أجلك.

قالت السيدة بصوت أمومي حانٍ ناظرةً صوبي.

_ من أجلي أنا؟!

_عندنا صبي سقط ، وجرح نفسه يحتاج مداواة ، ربطته لكن النزف لا يتوقف .

نظرتُ إلى مدينة وعلى وجهي الكثير من علامات الإستفهام.

تطوعت مدينة بالرد :

_ كيف تخرج البنتُ معك وعلى أيّ أساسٍ، خذي ابنك إلى أقرب مشفى .

دارت السيدة على كعبها، وغادرت دون أن تنتظر منا جوابًا آخر .

عدنا أنا ومدينة كلٌ إلى سريرها مترقبتين لما سيحصل، وبعد مدةٍ لا أذكر كم طالت، طُرق بابنا من جديدٍ لكن بهدوءٍ هذه المرة، نادت مدينة:

_من بالباب ؟

_ ست مدينة هذا أنا.

ترددت مدينة لبعض الوقت قبل أن ترد على محدثها كنت أرتجف تحت لحافي حين صاحت مدينة من خلف الباب:

_ من انتْ وماذا تريدُ من نساء وحيدات في ساعة كهذه.

فجاء صوت المرأة ذاتها التي صرفتها مدينة قبل قليل :

_ على مهلك ست مدينة هذا ابو نخيل لقد أحضرنا الطفل المصاب إليكن.

فتحت مدينة الباب كان أبو نخيل يقف بعيداً وتُسند السيدة صبيًا يبدو عليه النعاس ورأسهُ معصوب بخرقة ملطخة بالدم، قالت مدينة :

_ ما الذي تنوون فعله أنت وأبو نخيل هل تريدان إلباسنا ثوب العار والشنار، ماذا سيقول أهل القرية حين يرون رجلًا بباب دار المعلمات في هذه الساعة!؟

_ لن يقولوا شيئًا يا بنت الحلال، صدقيني الولد هذا نزيل في دار الايتام عندي، أنا (ماما خديجة) ألم تسمعي بي؟! اليتيمُ المسكين يمشي في نومه سقط من على السلالم وشُجّ رأسه، يحتاج أن تخيط ست نيسان جرحه.

ردت مدينة محتدةً:

_ خذيه إلى الإدارة إذن .

اقتاد الشيخ أبو نخيل، والسيدة ذات العباءة الصبي نصف النائم المخضب بدمه إلى غرفة الإدارة

تبعناهم أنا ومدينة، عقمت،الجرح ثم قطبته ولففته بما يكفي من الضمادات وانصرف زوار الفجر شاكرين .

عدت ومدينة إلى الغرفة واجمتان، لازمني الإرتجاف حتى ارتفعت الشمس وذهبت إلى صفي و تلاميذي حينها فقط عاد إتزاني.

تقربنا التجارب ممن حولها، فنقاتل معًا ضد ضعفنا ونقف صفًّا واحدًا كتفا إلى كتف أمام واقع مجحفَ، وحين تنتهي المحنة نخرج بدرسٍ تعلمناه وكف صديق يقبض على كفنا ليمنحنا المزيد من الأمان ... وهذا ما حصل بيني وبين مدينة الفتاة اليتيمة التي تعملُ في الصباح معلمة مَرحة المزاج ،وبعد الظهر تحيكُ القبعات والأوشحة الصوفية وتطرز المناديل وأغطية الوسائد؛ لتوفرَ دخلًا إضافيًا لإعالة أخوةٍ أيتامٍ يقطنون قرية بعيدة تحت رعاية زوجة أب لا ترحم؛ هكذا ربطتني بمدينة صداقة عمرها حتى الآن أكثر من ثلاثين سنة.

كانت مدينة خارج المدرسة في رحلة للتبضع حين جاءت بدرية الفرّاشة بعد ظهر ذلك اليوم لترافقني إلى دار الأيتام الذي تديره ماما خديجة صديقة عمرها، كان عليّ أن أزيل قطوب الجرح

مـــن جبـــين الصـــبي الـــذي يمشـــي فـــي نومـــه، بـــدلت ثيـــابي وخرجـــت لألتحـــق ببدريـــة المنتظـــرة عنـــد بـــاب المدرسة .

ها هي مدينة !

كانـــت ترفـــرفُ بكفهـــا الأيمـــن متحمســـةً حـــين اقتربـــت منـــي لتخبرنـــي أنّ شـــابًا وســـيمًا يقـــف بســـيارته عنـــد بـــاب المدرســـةُ ويتحـــدث إلـــى بدريـــة الفرّاشـــة، ضـــحكت منهـــا ومضـــيتُ، تصـــف مدينـــة كـــل الرجـــال على أنهم وسيمون .

كانـــت الإبتســـامة لا تـــزال علـــى وجهـــي حـــين صـــار بـــاب المدرســـة المفتـــوح بمرمـــى نظـــري لمحتـــه بســـترته الرماديـــة، والعكـــاز المتكـــئ علـــى الســـيارة كـــان يبـــدو وســـيمًا حقًـــا، لـــم تبـــالغ مدينـــة بوصـــفها لـــه، لمـــاذا لـــم أنتبـــه لوســـامته مـــن قبـــل؟ أم أنّ ضـــياءَ القمـــر يبـــدو أجملَ بعد ليال العتمة ؟!

أســـرعت دقـــات قلبـــي وارتعشـــت أصـــابعي وفكـــرتُ فـــي تفقـــد هنـــدامي، وســـألت نفســـي (هـــل شـــعري مرتـــب؟) (هـــل أبـــدو جميلـــة؟) وقبـــل أن أمّســـد خصـــلات شـــعري كـــان قـــد رآنـــي مـــن بعيـــد فحيّـــاني بإبتســـامته ذاتهـــا التـــي كـــان يحييني بهـــا مـــن بعيـــد أيـــام مستوصـــف الـــوطن، هـــرب الإرتبـــاك وغمرتنـــي البهجـــةُ وصـــرتُ أحثُ الخطى لأصل إليه.

لقاء وبَوح

البساتين، وسواقي الماء، والنخيل المتعالي، والأشجارالمتزاحمة، وبوادرُ الربيع، وتشابك أغصان الأشجار، كانت أجواءً مناسبةً للإعتراف بالحب، للبوح بعذابات ليالٍ طويلة، تُرى هل سترضى الحسناء بالدخول للقلعة؟ هل ستنفخ في أصيص الورد المحتضر ليزهرَ من جديدٍ؟

لم يكن قلبُ أمين خليًا من القلق، إذ لم يزل يحتفظ ببعض مخاوفه حتى بعد ما أكّد له مهاوي أن لا رجلَ في حياتها، رغم مخاوفه كان عازمًا على اتمام مهمته مهما كانت النتيجة.

ترجّل من سيارته قبالة باب مدرسة النخيل الإبتدائية المختلطة ومشى نحو السيدة الجالسة على كرسي هناك .

كانت سمراءً بعيونٍ ضيقةٍ، وانف طويلٍ معقوفٍ يزيّن جبينها خال كبير تنبتُ منه بضعُ شعيرات طويلةٍ تشبه قرون الإستشعار.. شعر للحظة أنها قادرةٌ على قراءة أفكاره، بادرته بعد ردّ التحية بالسؤال:

_ من وين؟

_ من العراق.

_ حسبالي من الهند. وقهقهت ضاحكةً، ثم أردفت

_ من الموصل ؟

_ كيف عرفتي؟

_ عرفت...

ثم أمعنتْ بدرية في اذهاله حين سألت :

_ تريد ست نيسان؟

_ وهذه كيف عرفتها؟

_تتشابهان، حسبتك بادئ الأمر أخاها الذي يصحبها مرتين في الشهر، غير أنه لايستعين بهذه، ثم أشارت إلى العكاز .

أوجعت الملاحظة الأخيرة أمين بعض الشيء، فترك عكازه يستند إلى مقدمة السيارة، ووقف هكذا دون مساعدة محاولًا قهر إحساس العجز الذي دهمه فجأةً .

صمتت بدرية لبرهة قصيرة وابتلعت ريقها لتضيف

_ إنها قادمة، أنا هنا بإنتظارها .

أربكت الحارسةُ الفطنةُ فارسنا، الذي كانَ يحاولُ لمّ شتات أفكاره... ظهرتْ معذبته من بعيدٍ بثوبها الاسود الطويل تُلاعب الريح خصلات شعرها .

تريّث أمين ليمنح دقات قلبه المتعجلة فرصةً لتهدأ، أكملت الحارسة حديثها، وحين اقترب وقعُ خطى نيسان على حصباء الممشى أمام باب المدرسة التفتَ إليها، قفز قلبُ نيسان من مكانه حين التقت أعينهما. وغمرتْ البهجة محياها ، لكن سرعانَ ما استعادت اتزانها وجديتها، ترك أمين الحارسة وخطا صوب الحبيبة يتوكأ على

عكـازه، كانـت عيناهـا تلمعـان ببريـق افتقـده طـويلًا، قالتْ بصوت مرتعش :

_ أهلًا دكتور، كيف حالك؟

_اظنني بخيـر الآن. انـت كيـف حالـك كيـف تجـري أمورك في الإرشاد النفسي و التربوي؟

_ كل شيء تمام .

نهضـت الحارسـة وأعطـت إشـارة لنيسـان أنهـا سـتتقدمهما بالمسـير، مشـى أمـين حـذو حبيبتـه يفصـله عنهـا خطـوتين، درجـةٌ مـن القـرب كانـت مربكةً لكليهما، بادر أمين بالسؤال :

_ أخبارك نيسان؟ كيف تجري الأمور؟

_ بخير .

_ ألا تفتقدين أيام مستوصف الوطن؟

_ إفتقدتكم طبعًا، كيف الاحوال هناك ؟

_ لا تساوي شيئًا بدونك.

تـوهّجَ خـديها بحمـرةٍ دافئـة، وأخفضـت نظرهـا فبـدت أهـدابها الراسـيةُ علـى وجنيتهـا كجنـاحي طـائر خرافـي، ففـاض الوجـدُ مـن قلـب المقاتـل العاشـق ليغمـرَ روحـه بالكامـل، عـادت بعـدها لتنظـر إليـه ثـم ضـمتْ خصـلةٌ مـن شـعرها خلـف أذنهـا، ليلمـع قرطهـا اللؤلـؤي مضـفيًا علـى بهـاء طلعتهـا المزيـدَ مـن السحر.

شـعر أمـين إنـه أمـام أميـرة أسـطورية هبطـت مـن عالم آخر .

قطعت نيسان تأملاته :

_ أخبـــار مْهـــاوي، لقـــد زارنـــي صـــديق لـــهُ وبلغنـي منـــه ومنك التحيةَ .

فكـــر أمـــين: منـــاورةٌ موفقـــةٌ لتغييـــر الموضـــوع ، ثـــم أجاب :

_مهاوي ؟

_ نعم

_ بخير، كنتُ في عرسه قبل أسبوعين .

_ حقاً! ياله من خبرٍ جميل ،قالت بفرح ثم أردفت :

_تزوج الفتاة التي يحب ؟

ضحك أمين وقال :

_لاطبعًا ، تزوج ابنة عمه .

_ ولماذا طبعًا؟

_ طبعًـــا وقطعًـــا، حكايـــةُ حبـــه للبنـــت الكتابيـــة لاتعـــدو كونهـــا مغـــامرة عاطفيـــة ســـيحكيها لأولاده وأحفـــاده ذات يوم من باب الإستعراض .

مشيا بضع خطواتٍ إضافية بصمت، كان أمين يواجه صعوبة في المشي مع عكازه على الطريق الزراعي غير المعبد .

_ماذا لديك؟ إلى أين ؟

_ طفـــل فـــي دار الايتـــام ســـقط وجُـــرحَ جبينـــه، ســـاذهب لأداويه .

_ دار أيتام هنا في قريةٍ نائيةٍ !

_قصةٌ طويلةٌ احكيها لك فيما بعد عليّ أن أذهب لمداواة الصبي والعودة قبل الظلام، سيكون شكلي سيئًا إن عدت متأخرة .

_ كان لديّ المزيدَ من الكلام لأقوله لك.

ارتبكت ،وبدت غيرمستعدة لمزيد من القرب، فآثرَ الصمت .
وصلا إلى سورَ حجري بإرتفاع مترين وبوابةٍ حديدية تعلوها أسلاكٌ شائكةٌ، و بابٌ جانبي صغير كان مواربًا حينها .
_ تفضل معي إلى هناك .
_ لا أظنني أفعل .
دار أيتام وأطفال فقدوا ذويهم... لم يكن أمين جاهزاً لخوض تلك التجربة.غادر بعد أن وعدها بزيارةٍ قريبةٍ .
وصلَ أمين إلى دياره بعد حلول الظلام، رغم أنّ الأمور لم تجر كما خُطط لها إلّا أنه كان سعيدًا؛ لأنّ جسرًا إمتد بين قلبيهما .
حين غادرت نيسان مأوى الأيتام ذلك المساء، داعبت خيوط الشمس الهاربة من بين الأفانين المتعانقة عينيها، ومسّدتْ نسائم الربيع خصلات شعرها وزقزقت أسراب عصافير الدوري المتزاحمة على أغصان شجرة النارنج محدثة ضجيجًا حلوًا كحلاوة كل البدايات، حلّق في سماء المزرعة طائرٌ غرّيد، يحمل بين منقاريه قشّةً وحط على شجرة التوت، أرادَ الطائر الجميل أن يباشر ببناء العش قبل أن يفرض دفء الربيع سطوته على غيوم الشتاء، فأحست نيسان أن شمعةً مطفأة في روحها إتقدت من جديدٍ .
كان قلب نيسان يردّدُ بجذَل
_ لا يساوي شيءً بدونك.
أذعنت نيسان لحقيقة أنها مُغرمة، فسقطت نظرية إلتزام أرض الواقع ومعها نظرية سقوف

الأحـــلام، ســـقطتا مـــن تلقـــاء نفســـيهما حـــين أعلـــن أمين بسطَ كامل سيطرته على قلب الأميرة .

تخلّفـــت نيســـان عـــن بدريـــة بخطـــوتين كـــان قلبهـــا يخفـــق بقـــوة وكيانهـــا يرتجـــف رغـــم تـــوهج خـــديها، لزمـــت بدريـــة الصـــمت، ممـــا أراح نيســـان التـــي لـــم تكـــن تملـــك بعـــدُ صـــفةً تمنحهـــا لأمـــين فـــي حـــال ســـألت بدرية عن هوية الضيف.

وحـــين دخلـــت دار المعلمـــات أمطرتهـــا مدينـــة بوابـــل مـــن الاســـئلة، حكـــتْ لهـــا نيســـان القصـــة كمـــا أُنزلـــت، وقبل أن تنهي سردها، تساءلت مدينة :

_ وما حكاية العكاز ؟

أشـــارت نيســـان بكـــفٍّ يتعامـــد مـــع فخـــذها كالسكين، فهمت مدينةٌ الاشارة فقالت :

_ في الحرب ؟

هزت نيسان رأسها بالإيجاب .

أضافت مدينة بحروف تقطر ألمًا:

_ حيف على شبابه.

انتهـــى الكـــلام عنـــد هـــذا الحـــد ، لجـــأت نيســـان لمـــذياعها تبحـــث عمّـــا يلهيهـــا عـــن كلمـــات أمـــين، التـــي لا تـــزال تتـــردد بـــين قلبهـــا وشـــغافه، وســـحابةُ عطـــره التـــي لا تـــزال تعبـــق فـــي ذاكرتهـــا فجـــاء صـــوت أم كلثـــوم تُغني:

(ســـامحت بيـــك أيـــامي ســـامحت بيـــك الـــزمن نسيتني بيك آلامي ونسيت معاك معاك الشجن...)

فـي الصـباح التـالي حضـرت ماما خديجـة صـاحبة دار الأيتـام إلـى المدرسـة وطلبـت مـن نيسـان أن تـدرس نـزلاء المـأوى مبـادئ القـراءة والحسـاب، وافقـتْ نيسـان دون تـردٍ، فطالمـا أضـجرها الفـراغ الذي يكتسح وقتها ساعات بعد الظهر .

انقضـى الأسـبوع ونيسـان تعـد الأيـام فـي تـوق وترقـب للقـاءٍ يجمعهـا بـه مـن جديـد، ثـم يـوم يومـان وثـلاث ولـم يـأت أمـين حتى أوشـك العبيـر المُسـكرُ الـذي كـان يغمرهـا كلمـا اسـتعادت ذكـرى صـوته وكلماتـه أن ينضب...

طابور التلاميذ

نيسان

لازلت أذكر ذلك اليوم وكأنه كان بالأمس، كنت أرتبُ طابورَ انصراف تلاميذي اثنان اثنان وكلٌ يمسكُ بكف صاحبه، وأنا أحاذيهم في المسير، توقفت عند باب المدرسة بينما تابعَ القطارُ البشري الصغيرُ طريقهُ، تلفتُّ حولي كعادتي بحثًا عن طائري المحبوب علّه يحطُّ على غصنٍ قريب فلم أجده وما إن عبرَ آخرُ تلميذين باب المغادرة حتى تشتت الجمعُ وركضَ كلّ صبيٍ وكل فتاةٍ باتجاه مختلفٍ يركضون وينادون بظفر :

_ على البيوت ...على البيوت .

وقفتُ أضحكُ من فوضويتهم المنتصرة على تعليماتي الصارمة، تقدمتُ خطوتين خارجَ الباب طامعةً بالمزيد من أشعة الشمس، أتطلّعُ صوب إلى الطريق المؤدي إلى قرية.

جاء صوتٌ من خلفي يقول :

_ مشوا أخيرًا.

التفتُ فَزعةً فغاصَ قلبي بين أضلعي حين وقعت عيناي عليه، قلت :

_ منذ متى وأنت هنا؟

فأجابني ضاحكاً:

_ منذ ضربتْ البنت صديقتها التي سرقت المحاةَ.

_كان ذلك منذ أكثر من ساعة!

_تهون الساعات كلها لخاطرك .

تكلمت عيناه بالشوق والوله، ثم قال :

_ تعالي لنتمشى لدينا الكثير لنقوله.

_ ها أنا ذا.

مشينا في الطريق ذاته الذي انفرط فيه طابور تلاميذي، ثم انعطفنا صوبَ حقول القمح ، مرت دقائق قبل أن يبدأ الكلام، فتشاغلت بتأمل الطبيعة من حولي، غيوم بيضاء كانت تتسابقُ لتعبر النهرَ.

وبعد برهة أجهلُ مداها قال :

_ نيسان، أنا لا أجيد التمهيد والمقدمات كما أننا لا نملك الوقت للمزيد من اللقاءات، ما أعرفه على وجه اليقين أني لا أستطيع العيش بدونك، لم أعتد غيابك طيلة الفترة الماضية أبدًا، لا أريد أن أعتاده ثم صمت لأقل من دقيقةٍ كأنه يحاول تعديل مسار الحوار، ليردفَ قائلًا

_ نيسان أنا أحبك، وأرغب باتخاذ خطوةٍ جديةٍ لنكون معًا حتى آخر العمر .

توقعتُ في أقصى السيناريوهات التي تدربت عليها أن يقول لي (إنني معجبٌ بك وأرغبُ بطلب يدك) ، لم أتوقع حوارًا بكل هذه الرقة والشاعرية.

تسمرت مكاني لا أدري ماذا أقول، تمتمتُ بعدها بألفٍ ممطوطة ثم أخرى مبتورة، كنت أشعر بتوهج وجهي ووجيب قلبي المتسارع، ضممتُ كفيّ لبعضما لأخفي ارتعاشي وأخيرًا قلت :

_ ممم حسنًا سأخبر أهلي بذلك .

كـان أمـين يعـاني فـي التنقـل بعكـازه علـى الأرض التـي بللهـا قطـر النـدى؛ فتوقفنـا تحـت شـجرة، حـدّثَني عـن طفولتـه، وعـن رحيـل أبيـه المبكـر، وأخيـه الـذي تعهـده بالرعايـة رغـم حداثـة سـنّه و حاجتـه لمـن يرعـاه، ثـم الإختفـاء الملغزلأخيـه وعائلتـه ... آثـرت الصـمتَ ولـم أكلمـه عـن نفسـي، لـم أرد أن يشـوب بَـوحي الموجـع جمـالَ تلـك الـذكرى، أردت أن تعـيش في داخلي بكل كمالها ..

سـرقنا الوقـت ونسـيت موعـد درسـي مـع أيتـام ماما خديجة .

_ لقد نسيتُ ... لدي درسٌ أعطيه لأطفال الميتم .

الطفلة البكماء تسعل

أمين

تذكرت نيسان فجأةً موعدها مع نزلاء مأوى الأيتام، كنا في الطريق إلى المدرسة حين التفتتْ إليّ وقالت :

_ هل تحملُ سماعة الطبيب معك؟

_ نعم، هي ذي في جيب سترتي لا تفارقني.

_ البنتُ البكماء كانت تسعلّ بشكل مخيفٍ مساءَ أمس، أبإمكانك أن تفحص رئتيها وتصفُ لها دواءًا؟

وافقتُ بإيماءة فأضافت نيسان:

_فتاةٌ جميلة لا أحد يعرف قصتها، ستحبها حين تراها.

كانت الفرّاشة المتبصرةُ تقفُ بباب المدرسة بخفرٍ، عرضت عليها أن تنضمّ إلينا حين ترددت نيسان بقبول عرض ايصالها بالسيارة الى البستان حيث الميتم...ركبنا السيارة وفي غضون دقائق كنا بباب المأوى، قدمتني نيسان إلى سيدة بملامح ودودةٍ وثيابٍ سوداءٍ على أني طبيبٌ صديقٌ جئت بناءً على طلبها لفحص قطر الندى التي كانت تسعل في اليومين الأخيرين، رحبتْ بي السيدة، ارتقينا درجات ثلاث، لنصل مدخل الدار ثم إلى بهوٍ رحب، صغارٌ لا يتجاوزُ عددهم العشرة ينتظمون على شكل هلال على بساطٍ، مستقبلين جدارًا عليه سبّورة سوداء، انقبض قلبي حين رأيت استكانة الأطفال تحت سقف دار الرعاية.. سبقتني نيسان بخطى خبيرةٍ وأنا بأثرها، وحينَ وقفتُ أمامَ جمع الصغار، شهقَ أحدهم كأنهُ رأى شبحًا، ثم نهضتْ فتاة ضئيلة من بينهم نظرتْ إليّ وتمتمت بكلمة لم أفهمها، التفت الجميع إليها كانت الدهشة على كل الوجوه وكأن كلمات البنت سقطتْ عليهم من السماء، اندفع كيان

الطفلة الضئيل نحوي بسرعةٍ جنونيةٍ ارتطمت بي حتى كادت توقعني، عانقتني وهي تصيح بصوتٍ شقّ عنانَ السماء :

_عمو أمين!

حدثَ كل ذلك في غُضون ثوانٍ، استعدت توازني وسط دهشة الجميع، ونظرت لأتبين ملامح محدثتي ومن ذا الذي يناديني بكل هذه الألفة؟!

بالكاد عرفتها، فقد شحُب لونها، وجفّ عودها ،وازدادت ضآلةً إلى ضآلتها إنها (آسيا) ابنة أخي!

ضممتها إلى صدري، كانت تشهقُ وتنشجُ وتغمغم بعبارات لم أفهم منها سوى (بابا) (ماما) (زياد).

تهامس الصغارُ فيما بينهم ،قال ولدٌ بدينٌ لصاحبه :

_ لقد وجدوا أهل نار.

ما الذي أوصل البنت إلى هنا، وأين أهلها ؟

وإلامَ انتهى مشروع هجرة العائلة إلى خارج البلاد؟

أكدتْ لي مديرة الدار أنها وجدت قطر الندى (على حد تعبيرها) تجلسُ وحيدةً عند باب المزرعة ذات ليلة في الشتاء قبل المنصرم وهي ترتجف من البرد والجوع والخوف، أضافت أن لسان البنت كان معقودًا طيلة الأربعة عشر شهرًا التي أمضتها في المأوى، وإنها لم تنطق بحرف قبل اليوم.

كنت محطمًا ومتصدّعًا وها قد تشظيتُ، انهارتْ كل دفاعاتي ومزاعمُ الصلابة والتماسك التي تبجحتُ بها في شهور نهضتي المزعومة من تحت الركام.

لقد انهار الوهم، صادق لم يغادر البلاد، صادق غُدر، كما غُدرَ الكثيرون في تلك الحقبة، ويبدو أنّ البنتَ كانت الناجيةَ الوحيدة من المجزرة...

لم أكن قبل يومي في الميتم خليًا من الشكوك ،كانت الوساوس تهمس لي :

ماذا لو فشل في عبور الحدود؟

ماذا لو سقطَ ضحية لعملية احتيال ؟

تكررتْ قضايا خرجَ ولم يعّدْ في سنوات الحرب، لكنها كانت تخضع للتعتيم، لا أحد يود الإعتراف بأن فلانًا مفقود الوجه الآخر لصفة مغدور، نحب التعلق بالآمال وإن كانت واهيةً وغير خاضعة للمنطق، وأنا ارتحت لفكرة أن اخي عبر الحدود إلى دولة مجاورة هاربًا بتلك الفكرة من احتمالاتٍ أكثر قتامةً لم أُرد إدراجها ضمن لائحة ما قد يكون.

لم يكن أمر تسلّم الفتاة المسكينة، وإرجاعها إلى حضن جدتها ورعايتي بالأمر اليسير، فقد تطلب أمرًا قضائيًا، وأُعيد فتح التحقيق في اختفاء صادق وعائلته...

وقفت آسيا أمام ضابط التحقيق بكماء كحجرٍ، لم تنبس ولو بحرف، قابلتْ كلَّ الأسئلة التي وُجهت إليها بالصمت المطبق وحين ضغط عليها ضابط التحقيق ليحملها على الكلام قالت كلمة واحدة نطقتها كمن يمضغُ جمرة من نار :

_ بهجت.

حاول الضابط جرّها للحديث عمن هو بهجت؟ وماذا فعل؟ ولكن دون جدوى، قابلتْ البنتُ كل الاسئلة بعيون شاردة وفمٍ مغلقٍ .

لم أدل بأي معلومة خشية أن يُعاد النظرّ في شبهة محاولة أخي الهروب صادق خارج البلاد الأمر الذي كان يعني المزيد من ضغط رجال الأمن عليّ والمزيد من التضييق في العمل .

أغلق التحقيق بعد ذلك ..

كان السيناريو الأكثر قبولاً لدى الشرطة إن الباقون قُتلوا بينما سرقت السيارة، الأحجيةُ الأصعب هي كيف أطلقوا سراحَ البنت؟! وكيف وصلت إلى قرية النخيل؟!

آسيا هي الوحيدة التي تعلم تتمة الحكاية، ولكنها كانت عازفة عن البوح .

آسيا ذلك الطير الذي ضلَّ عن سربه، وعليه أن يكمل رحلته محلقًا لوحده في سماء الله.

حين اخبرتُ أمي بقصة عثوري على آسيا في ملجأ للأيتام وعن عودتها المزمعة للبيت، شخصتْ بعينيها لحظة سقوط الخبر عليها ثم سهمت دون أن تقول شيئًا، وظلت ساهمة وصموتة طيلة فترة إنشغالي بإجراءات ضمّ آسيا إلى وصايتي .

خلال أيام غادرتْ آسيا ملجأ الأيتام كان صباحًا مشرقًا ارتدتْ فيه ثوبًا جديدًا، ورُبطَ شعرها المصفف بشرائطٍ لامعةٍ، وقف الأيتام ليودعوا (نار) أو (قطر الندى) تتقدمهم مديرة الدار الطيبة ، بكى الصغار لوداع آسيا، أو ربما لأنهم لا يأملون أن يُستعادوا ذات يوم ليرفلوا بدفء بيت وأسرةٍ . وعدتهم بأني سأحضرها لزيارتهم كلما سنحت الفرصة.

ركبنا السيارة وانطلقنا ركنت عند باب مدرسة النخيل، وما إن لمحتني الفرّاشة المتبصرة حتى تقدمت نحوَ السيارة وقالت :

_ست نيسان في إجازة، وستعود بعد ثلاثة أيام .

أكملتُ رحلتي بنفس مكسورةٍ من نشوة عشقٍ لم تمهلني لأتنفس عبيرها، ومن حزني على أخي وعلى بنته التي غادرت بيت جدها مع أمٍ وأبٍ وأخٍ وهاهي ذي تعود وحيدة بعد عام ونيف من الضياع .

ماكنة الخياطة

أمين

وصلنا البيت فترجلت آسيا وركضت إلى جدتها والتحمتا في عناقٍ أليم وأجهشتا بالبكاء. نامت آسيا تلك الليلة قبل موعد العشاء على الأريكة في غرفة الجلوس كما اعتادت في حياة والديها، فحملتها إلى سريرها في غرفة الجدة، عدت إلى أمي الزاهدة في التفاصيل وقبل أن أجلس بادرتْ بالقول :

_ أخوك مات!

تنهدتُ حينَ لم أجدْ ما أقوله

_وحده الموت قادر على جعل أخيك يترك آسيا ملقاة على قارعة الطريق.

ثم حملتْ نفسها وتسلقت السلّم إلى غرفة صادق بدت محنية الظهر وكأنها طعنت في السن فجأةً .

في الصباح التالي ، كان يوم عطلة، استيقظتُ من نومي فلم أجد أمي ولا آسيا في البيت، انتابني شيءٌ من قلقٍ قمعته بحججي العقلانية كالعادة .

كان قوري الشاي لا يزال دافئًا وصينية الإفطار تنتظرعلى طاولة المطبخ، سخَّنتُ الشاي، وسكبت لنفسي، وبينما كنت أوقد سيكارتي نظرت إلى سطح الدولاب فلم أجد ركوة القهوة ولا المشعل الصغير الخاص بها.

توقفت هذه المرة، ولم أمررتلك الملاحظة، لم أسمح لها بالعبور هكذا دون استيقافٍ. عدتُ الى شايي وسيكارتي التي احترق نصفها أثناء صفنتي في أمر الركوة والمشعل، نهضتُ بعدها عائدًا إلى غرفة المعيشة، وخزَ الشوق فؤادي وأنا أنظر

للهاتف المرتكن في زاوية الغرفة على طاولةٍ خشبيةٍ منخفضةٍ يفترش غطاءًا مذهبًا حاكته أناملُ جدتي ذات شتاء.

كان عليّ أن أحصل على رقم هاتفها، على الأقل كنت سأكلمها وأبث إليها شكواي. حبيبتي التي تركتها منذ أكثر من أسبوع، بأنفاس تشهق دهشةً وعينان تدمعان حزنًا. دهشةٌ من سلسلة المصادفات التي قادتني للعثور على آسيا وحزنٌ على مصاب الفتاة الضائعة .

عادت أمي وآسيا قبل الظهر محمّلتان بالأكياس، قالت إنها أخذت آسيا للطبيب، لينظر في أسباب سعالها، ففكرت :

_ وأنا ماذا أفعل هنا ؟

فأجابت وكأنها سمعت افكاري:

_ لم أردْ أن أُثقل عليك

فقلت في نفسي من جديد:

_أيباه !

_حينما كنتم صغارًا كنتم لا تشفون إلّا على يد د.إدريس حاج داؤود، كنت آخذك إلى عيادته محمومًا لا تقدر أن تفتح عينيك لأعود بك معافىً بإذن الله، فأرمي الحبوبَ وقواريرَ الدواء .إذ لا تعود بحاجة إليها.

يشيخ المرءُ حين يتوقف عن الحلم، ويشرعُ بالتذكر، تخلصت أمي من ركوة القهوةُ ومشعلها ومرطبان البنّ، في دلالة واضحةٍ أنها ما عادت

تحلم بجديد لا طيور ولا هداهد تأتي بالأنباء، وهاهي تركنُ للذكرى .

لزمت أمي الصمت لما تبقى من اليوم إلا من لمام الكلمات التي تهمسها لآسيا بين فينة وأخرى .

استيقظتُ من قليلوتي على نبضات ماكنة الخياطة، لقد مرَّ زمنٌ طويلٌ منذ أن دقتْ إبرتها آخر ثوب تحت سقف بيتنا، كانت نبضات ماكنة الخياطة ترددها جدران البيت تشبهُ صوتَ حكواتيةٍ عجوزٍ تحكي أسطورة الصراع الأزلي بين حقيقة الموت الجازمة وواقع الغياب المتأرجح بين الأمل الواهي واليأس المحكوم للمنطق ووقائع الأرض .

كانت أمي تخيط ثوبًا أسودًا، ثوب حداد...

أعلنت ماكنة الخياطة ذلك المساء بدءَ موسم الحزن في قلب أمي، بعدما سرق الغدر والموت ظلمًا حقها في الحزن والحداد على رحيل ولدها البكر لأكثر من عام.

مرت الأيام ونحنُ نتماهى مع صورة الواقع الجديد، العائلةُ المتكونة من العمَّ والجدّة وابنة الأخ، الشجرة التي أُسندت مهمة تشذيب أغصانها إلى فأس الحطاب لا إلى مقص البستاني.

مصادفات وتدابير

نيسان

لم أكن لأصدق ما حدث مع قطر الندى، لولا أني كنت أحد شهود العيان، إنطلاق لسان الطفلة البكماء التي لم يُسمع لها صوتٌ سوى هلوسات كوابيسٍ مخنوقةٍ، نطقتْ حين استشعرت أمان الرجل الثاني بعد أبيها، سلسلة المصادفات التي قادت أمين إلى الميتم ليعثرَ على ابنة أخيه، جعلتني أشعر بضآلة التدبير الأرضي أمام إرادة السماء، تدابير الله تنتصر حتمًا..

هكذا اختار القدر أن يجمعني بهذا الرجل بعد سلسلة من المصادفات واللقاءات التي لو خططنا لها لما جاءت بالدقة التي أرادها لنا الله .

بعد بضعة شهورٍ كنتُ جالسةً في صالة بيتنا بثوبٍ أبيض ينسدلُ شعري على كتفيّ يكللني وشاحٌ أبيضٌ شفيف، ومدينة إلى جواري تهلهل وتغني :

_شايف خير ومستاهلها ...

أخذَ أمين بيدي ومشينا بين اهازيج الأحبة وهلاهل النسوة ونثر الجكليت ومضينا معًا إلى بيتنا زوجًا وزوجةً

آمنة

في خريف عام ١٩٨٨ دخلت نيسان بيتي زوجة لي، وعادت آسيا إلى مقاعد الدراسة، رافقتها أمي بادئ الأمر حتى تغلبت البنت على رهابها من مغادرة البيت، ظلت تحمل سيماء البنت الهادئة الخوّافة، تقدمت دراسيًا وتباعدت كوابيسها مع مرور الأيام، وفي مطلع عام ١٩٩٠ وضعت نيسان ابنتنا الكبرى (آمنة) كانت آمنة مفتاحَ خروج آسيا من أزمتها، فكلما كبرت آمنة تعافت آسيا، هذا ما كان يحدث بالضبط، تضحك آمنة فتضحك لها آسيا، تبكي آمنة فتنسى آسيا كل ما مرت به من أسىً ويصبح همها الأوحد هو أن تُسري عن الصغيرة وتحملها على الخلود للنوم، وما إن تمكنت آمنة من الجلوس على كرسي حتى شرعت آسيا بلعب دور المعلمة، كانت تحكي لها القصصَ وتعلمها الأناشيدَ، أعادت البنتان أجواء الألفة والدفء إلى بيتنا بعد سنواته العجاف.

الشرير وعازف العود

في ليلة من أواخر شتاء عام ١٩٩٢ كنا مجتمعين حول المدفأة وبصيص الضياء المنبعث من فانوسٍ قديم، آوت أمي إلى فراشها باكرًا، نيسان المتعبة من غثيان الفصل الأول من حملها الثاني تحاول إقناع آمنة بالبقاء في مكانها والتوقف عن التجول في اركان البيت في ذلك الطقس البارد، انكبتْ آسيا على كتبها ودفاترها قرب المدفأة، وأنا أنصتُ للأخبار التي يبثها الراديو عبر أثير إذاعة مونتيكارلو الدولية .

لملمت آسيا كتبها ودفاترها ورتبتها في الحقيبة ونادت على آمنة :

_تعالي يا آمنة ،عندي لك قصة.

قفزت البنت المشاكسة من حجر أمها ملبيةً نداء بنت العم التي تجيد لعب دور الأم الصغيرة، جلستْ وقد ارتسمت الجديّةُ على وجهها، وبدأت تعبثُ بخصلات شعرها الملتوية مضغية بكل حواسها لآسيا التي إنبرت بسرد حكايتها بانسيابية تنمُ على أنها ليست قراءتها الأولى للقصة :

كان ياما ...كان في المدينة عازفُ عودٍ طيبٌ جميلُ الطلعة حسنَ المحيّة له عينان بلون ماء النهر وشعرٍ يلمعُ بشُقرةٍ ذهبيةٍ، كان يعزفُ على عوده أجمل الألحان كل ليلةٍ حتى ينامَ طفلاهُ، ولد جميلٌ يشبهه وفتاةٌ تشبه أمها.

وذات يـــوم جـــاءَ إلـــى المدينـــة ســـاحرٌ شـــريرٌ لـــه طلعـــةٌ بغيضةٌ وعيون مدورة تنذرُ بالشر.

قال الساحر لعازف العود:

_هـــذه الـــبلاد ليســـت بـــلادك يـــا ســـيدي، يجـــبُ أن تعـــيشَ فـــي أرض لا حـــربَ فيهـــا حيـــث الخيـــر والأمـــل والرخـــاء. فتوقـــفَ الرجـــلُ الطيـــبُ عـــن العـــزف ورمـــى عوده جانبًا وسأل الساحر :

_ أين هذه البلاد وكيف أصل إليها؟

_ ســـآخذك إليهـــا بنفســـي لا اريـــدُك أن تمـــوت هاهنـــا هذه الأرضُ لا تشبع من الدمّ .

إتفـــق الســـاحر الشـــرير مـــع عـــازف العـــود أن يلتقيـــا فـــي كـــوخٍ خـــربٍ وســـط البيـــداء، ليســـافروا بعـــدها الـــى أرض الأمـــن والرخـــاء... وحينمـــا وصـــلوا إلـــى هنـــاك قـــال الساحر:

_ لننام ليلتنا هنا ونسافر عند الفجر يا سيدي.

وافقـــهُ الرجـــل الطيـــب، ونـــام مـــع عائلتـــه فـــي ذلـــك الكـــوخ الحقيـــر، وفـــي ظلمـــاء الليـــل تســـللتْ زوجـــة الســـاحر وســـرقت طفلـــهُ الصـــغير الجميـــل، وأحـــرق الســـاحر البيـــت علـــى الرجـــل الطيـــب وزوجتـــه ، فـــرّت البنـــت مـــن الحريـــق بإعجوبـــة، والتهمـــت النيـــران أعمـــدةَ الكـــوخ فســـقطَ الســـقف علـــى الرجـــل وزوجتـــه ، فصاح عازف العود :

_ ابني بنتي.. ابني.. بنتي

ثم أسكته الموت إلى الأبد...

وظل الصبي الجميل ضائعاً الى يومنا هذا..

كانت الدموع تبلل وجهي حين أكملت آسيا حكايتها، والفزع والعجب يتملكا من نيسان، وآمنة تغفو على حجر ابنة عمها.

هذا ما حدث لأخي، وهذه هي الاهوال التي عقدت لسان البنت لأكثر من عام .

عادت لي تلك الليلة ذكرى لقاءي بوالدة بهجت، قالت السيدة يومها ان الجثمانَ المحترق ليس لابنها، كان الرجل المحترق أخي .

_ظلَّ الصبي الجميل ضائعًا الى يومنا هذا _

هذه الرسالة التي أرادت آسيا إيصالها لي

_أخي لم يمت في الحريق ...أخي حيّ يرزق

حملت نيسان صغيرتنا إلى سريرها ،وانسحبت آسيا إلى غرفة أمي متحاشيةً النظر في عينيّ أي منا .

زرياب

هربت سنوات العمر من بين أصابعنا كما يهرب الماء من حفنات الظامئين، ذابت كما تفعلُ حبة البرَد في كف طفلٍ، تقافزت كحبات لؤلؤ هاربةٍ من عقد مفروط، وهاي هي عتمة الجماجم تنيرها اقمار الفضة، ما بين حرب وحرب وحصار وانهيار دولة واقتتال على الهوية وتهجيرٍ وفقدٍ ودموع وضحكات بين هنا وهناك... مرقت سنواتنا مضت مسرعة كهدنة قصيرة بين معركتين.

لقد تغيرت الأرض في العقدين الأخيرين، الصور أصبحت ملونةً، صار التقاط صورة بالأبيض والأسود يحدث من باب الاستكشاف لا أكثر، الهواتف ذات الأقراص المرقمة من الصفر حتى التسعة تلك المستريحة على طاولات بمفارش أنيقة هُجرتْ ونُقلت إلى متاجر الخردة ومحال الأنتيكة، وأُستبدلت بأخرى تشبه علب السكائر، وصار لكل فردٍ هاتفه الخاص يحمله معه أينما كان، وسائل التواصل صارتْ عديدة، يسمونها المجتمع الإفتراضي.

رسائل البريد المغلفة بظروف أنيقة تزينها طوابع وأختام أضحت ذكرى من زمانٍ غابر، تطبيقات التواصل على الهواتف الذكية تتيح إمكانية الإتصال المصوّر، صار بإمكاني التواصلُ فيديويًا مع أصدقائي على الطرف الآخر من الكوكب لو أردت.

رحلت أمي منذ عشر سنوات كبرتْ آمنة وتزوجت ولها بنت، أما آسيا فهي الآن أمٌ لشبلين رائعين هما زياد وصادق، تعيش

في الجزء الأوروبي من تركيا مع زوجها وولديها، لقد أثبتت هذه البنت إنها أقوى مما يبدو عليها.

إنها الحياة، تدوس من يرفض التأقلم مع ما تفرضه من وقائع فنتوائم ونتلاءم راغبين أو راغمين مع واقع فُرض علينا دونما ذنب جنيناه، ولا يدّ لنا في تغييره .

ها قد مضى أكثرُ من تسع وعشرين عامًا على خروج أخي صادق وعائلته، الذهاب الذي لم تعقبه أوبة.

نيسان تنظر إليّ بعين الخبير الذي يعلم ما يدور في عقلي وما يجول في خاطري وأنا اقلّب دفاتر الصور القديمة التي كانت من بين المقتنيات القليلة التي استطعتُ إنقاذها بعد خروجنا من بيتنا بما علينا من ثياب ذاتَ مساء حزيراني قائظ في عام ٢٠١٤.

كنت أقلّب في ذكريات عائلتي، صورٌ زواجي من نيسان، صورٌ لنيسان ببطن منتفخ، وصورةُ لآمنة على حجر آسيا ، ثم أمي تطبع قبلةً على جبين مولود في لفة بيضاء، إنه "عز" ولدي الأصغر

قطع شرودي صوت موسيقى ينطلق من هاتف عز فقلت :

_ اخفض الصوت بنيّ.

_ بابا هل أنت في حداد !

رمقتْ نيسان ابننا الغر بنظرة نفاذ صبر، وقالت:

_ دع أباك وشأنه، سأشرح لك فيما بعد.

حمل الشاب هاتفه المحمول، وغادر المكان متأففاً.

عدتُ إلى دفتر الصور، تناولت صورة البوليرويد التي التقطتها لنا سلمى زوجة أخي بعد عشاءنا الأخير في بيت أمي في الموصل في ليلة من ليالي أواخر كانون الأول العام ١٩٨٦، حينها أصرّ

صادق على سلمى أن تلتقط صورتين، دسّ الأولى في جيبه وبقيت هذه مع تذكارات البيت الكبير، تأملت صورة أخي، كيف سيكون شكله لو أنه لا يزال حيًّا؟ أخرجت الصورة من جرابها والتقطت لها صورة بهاتفي المحمول ووضعتها على مساحتي الخاصة على منصة فيس بوك أرفقت الصورةَ بنصٍ كنت قد قرأته على صفحة رسامة تشكيلية دمشقية:

"لم يخبرني أخي بحبه ذات يوم، ولكن حين ارتطمت قدمي بحافة الباب أغلق عينيه وأغلق فمه وكأنه هو الذي تألم."

ثم نقرت على أيقونة النشر، تركتُ الهاتف جانبًا وتناولت الكتاب الذي كان يرافقني ذلك اليوم، رنَّ هاتفي بعدها معلنًا وصول رسالة ثم أخرى، تجاهلت إشعارات الهاتف وانهمكت في القراءة ،عدت بعد ساعة لتصفح هاتفي وبعد جولة في تطبيقات التواصل التي كانت تعجُّ بالقلوب الحمراء ذلك اليوم، تفقدتُ البريد الوارد، الرسالةُ الاولى كانت من أُمنية ابنتي الوسطى، إنها الآن في ربيعها الخامس والعشرين ورثت عن أمي جمالًا استثنائيًا عيون زرقاء صافية وشعر بشقرة ذهبية...تعمل أُمنية طبيبة مع فريق تطوعي لعلاج ضحايا الحرب من المدنيين في مستشفى الطوارئ في أربيل، تعكف أيام عطلها القليلة على تعلّم الإيطالية؛ لأن معظم أعضاء فريقها التطوعي إيطاليون.

نقرتُ رسالة أمنية، فجاءني صوت عبد المجيد عبد الله "يا بعدهم كلهم ...يا سراجي بينهم "

أرفقت أمنيتي الحبيبة المقطع المرئي بكلماتٍ:

_ كل عام وأنت حبيبي بابا.

الرسالةُ الثانيةُ كانت من آمنة، صورة، "سما" ابنتها بثوبٍ احمرٍ ،وشريطة شعر حمراء وعبارة :

_عيد حب سعيد جدو.

يبدو أن نيسان قد أوعزت لأفراد الأسرة بأن يتحدوا ليخرجوني من مزاج الحزن الذي غشيني هذا اليوم.. الرسالة الثالثة يفترض تكون من آسيا، لكنها كانت من(كاكا مصطفى) صديقٍ تعرفت عليه مؤخرًا بعد هجرتنا نحو الشمال ساعدني في العثور على مسكنٍ لعائلتي أبان موجة النزوح العاتية التي شهدتها البلاد في صيف٢٠١٤

كتب كاكا مصطفى في رسالته:

_ هل أستطيع مقابلتك؟

لماذا يريد كاكا مصطفى مقابلتي؟!

قلت متفكرًا قبل أن أنقرُ على لوحة المفاتيح :

_ طبعًا، كل الهلا تفضل في أيّ وقت يعجبك.

وجاءني الردُ في غضون ثوانٍ يضرب لي موعدًا في أحد مقاهي شارع الإسكان وسط أربيل، الموعد بعد ساعتين من الآن.

لا أحبذ الخروج في يوم كهذا، أجواء الأعياد الدخيلة لا تشبهني ولا تناسب سنّي ولا ثقافتي، لكنني كنت مضطرًا لأجابة دعوة الرجل الطيب .

قبل الموعد بنصف ساعة كنت أركن سيارتي عند الرصيف المجاور للمقهى توقعت أن يمنحني كاكا مصطفى نصف الساعة المتبقية على موعدنا لأخلو بنفسي وأفكر في الاسباب المحتملة وراء عقد هذا اللقاء، لكنه كان بانتظاري فقد لمحتُ عمامته الكردية بلونها الكحلي من زجاج واجهة المقهى، يبدو أنه يريدني في خطب جللٍ، كانت الشمس قد غابت منذ حوالي

الساعة والنجوم بدأت بالتناثر في سماء المدينة، فتيات وشباب بقمصان وسُتَر حمراءٍ يغدون ويروحون، ودببة محشوة في كل مكان والكلُّ يحمل ورودًا حمراء:

_ما الذي جاء بي إلى هذا الجنون؟

دقّت عصاي على بلاط الرصيف المقابل للمقهى، اجتزت البوابة فهالني المكان بدفئه ورائحة الشاي المنكه ببتلات الورد وحبات الهيل وصوت يوسف عمر يغني :

_وفراگهم بچاني ...

قام مضيفي من مكانه ما إن لمحني عند باب المقهى

_ أهلًا دكتور.

ثم قادني إلى الركن الذي اختاره بعنايةَ؛ ليختضن لقاءنا المزمع.

مقدماتٌ وسلامٌ وسؤالٌ عن الأحوال وحديثٌ مختصر عن حالة الطقس... كان الترقّب باديًا على وجه الرجل الجبلي الجاد الذي لا يعرف اللّفّ والدوران، سهلت عليه الأمر:

_ خير كاكا، ما الذي حملك على عقد هذه الجلسة الجميلة.

_ ألا يدعو الأخ أخاه؟

_ عزّ الله نعم الأخ .

_سينضم إلينا بعد قليل صديقٌ يود أن يحدثك في موضوع مهم .

_ كل الهلا به.

وبعد أربعين دقيقة إنضم إلينا كهلٌ طويل القامة نحيل البنيان، شاحب الوجه له عينان ضيقتان وحاجبانُ كثيفان، كان يتزيا بثياب مدنيةٍ على عكس مصطفى الحريص على

الظهور دومًا بالزي الكُردي التقليدي، قدمه لي كاكا مصطفى على انه صديق قديم أسمه محيي الدين .

استلم كاكا محيي زمامَ الحوار متحدثًا باللهجة البغدادية التقليدية دون لكنة أعجمية، قال إنه وُلد في وعاشَ درابين بغداد القديمة، وإن وجوده في الشمال أيام طفولته وصباه لم يتجاوز كونه نزهة صيفية.

وبعد رحلة طويلة في سرد ذكريات الطفولة والصبا والشباب الأوَلي قال محيي :

_ ماذا تعرف عن صادق عز الدين؟

غاص قلبي بين أضلعي، وتمتمت بحروف غير مفهومة بادئ الأمر، ثم قلت :

_ أنتَ ماذا تعرف عنه ؟

كنت في أقصى ما قد يصل إليه خيالي قد أفكر في أن محيي وصادق قد يكونا التقيا ذات مرة في وحدة عسكرية أو معسكر لتدريب الجند. قال محيي الدين:

_ انا لا أعرفه حقًا ، لكن أليست هذه الصورة له؟

ثم وضع على الطاولة توأمَ الصورة التي نشرتها على موقعي على موقع فيس بوك هذا المساء، نظهر فيها أنا وأخي جالسين على أريكة غرفة المعيشة في بيت أمي أنا مغمض العينين وعودُ صادق يستريح على الطاولة أمامنا.

_ من أين لك ؟

_ إنها حكاية طويلة، ساحكيها لك، لكن ماذا حلّ بصادق ميتٌ هو أم حي ؟

_مات مغدورًا، قُتل هو وزوجته وخُطف ابنه ونجت البنت بمعجزة .

_وهل عرفتم القاتل ؟

_قُيّدت القضية ضدّ مجهول .

قلت بتأفف ،ثم اردفت

_ألن تحك لي كيف وصلتك الصورة ؟

_بالطبع سأحكي، أنا هنا لأحكي :

بدأتْ الحكاية في خريف عام ١٩٨٧ كان قد مضى على زواجي عشرةُ أعوام، ولم أرزق بطفل، بدأ اليأس بالتسلل إلى قلب زوجتي والسأم يملأ حياتها، كانت تجارتي مزدهرة في ذلك الوقت، لي معملٌ لإنتاج البلاط ومتجرٌ كبيرٌ لتسويقه، وأعيش في بيت رائعٍ في أرقى أحياء بغداد، لم يكن ينقصني شيءٌ إلا بكاءُ طفل، رضيعٌ يناغي، صوت كاروك يدق أرضية البيت بإيقاعه الرتيب كان من شأنه ان يعيد الحياة إلى قلبينا، في تلك الفترة استخدمنا خادمة تعمل بأجر زهيد، تساعد زوجتي في أعمال البيت، كانت الخادمةُ تعيش في عشّة من جريد النخل في بستان قريب، تأتي كل سبت تنظفُ البيتَ وتغسلُ الثيابَ وتلمّع البلاط، قالت أن إسمها (حليمة) وأن الطفل الذي كان معها هو ابنها وأن زوجها هرب خارج البلاد وتركها، شغفت زوجتي بالطفل ابن الخادمة، وكلما مرت الأيام إزداد تعلقها به، كان طفلًا جميلًا ومحبوبًا بعيون زرقاء وأهدابٍ داكنة وشعر أشقرٍ طويل، وبعد فترة قالت لي زوجتي إنها بحاجة إلى خدمات حليمة الدائمة، وإن قدومها إلينا يومًا من كل

أسبوع ليس كافيًا... وافقتها لعلمي أن الضجر كان يلتهم ساعات نهارها حتى ظهر ذلك الطفل في بيتنا، جهزنا لحليمة وابنها غرفة خارجيةً في حديقة المنزل لتسكنها مع طفلها المحبوب، وصارتْ خادمة دائمةً في بيتنا.

ذات يوم تركت حليمة طفلها يغطُ في نومه في غرفتها ، وخرجت لا ندري متى ولا إلى أين ؟! هرعت زوجتي لنجدة الطفل الذي طال بكائه حتى بُحَّ صوته، لتكتشف أن الباب كان مقفلًا من الخارج والمفتاحُ معلقٌ في مكانه، فتحت زوجتي الباب وجاءت بالصبي إلى البيت بانتظار أن تعود أمه، ساعةً بعد ساعة يومًا بعد يوم حتى يأسنا من عودة الأم الهاربة، وكلّ ما وجدناه من متاعها كان صرة ثيابٍ في قعرها محفظة جلديةٌ أنيقة تحوي هذه الصورة وفردةُ قرط ذهبي ، وخاتم زواج محفور على باطنه اسمُ صادق وبطاقة هوية تحمل اسم صادق عز الدين العطّار، ثم وضع الحاجيات التي وصفها أمامي على الطاولة.

تناولت بطاقة الهوية ، لقد كانت لأخي، هذه صورته وهذه بياناته التي اعرفها يقينًا، لم تحمل المصوغات الذهبية أية دلالة شخصية .

استأنف الرجل سرده للحكاية :

أظنُ أن الذهب كان أكثر من ذلك وأن الخادمة كانت تعتاشُ عليه فتبيعُ سلسلة ثم فردة قرط وهذا آخر ما تبقى لديها.

اختفت حليمة من حياتنا إلى الأبد، لا أحد من الجيران رآها أو جاء بخبر عنها، وفي عام ١٩٩٣ هاجرنا إلى تركيا ومنها إلى أوروبا وتحديدًا إيطاليا ثم عدنا الى شمال العراق في عام ٢٠٠٩

قالت حليمة أنّ الولد اسمه زياد، لم أغير اسمه حينما تعهدتُ برعايته، يعلم زياد تمام العلم أنه مُتبنى وأنه ابن رجل عراقي موصلي يُدعى صادق عز الدين، وأنه ابن شرعي فقد أقسمت حليمة على ذلك بأغلظ الأيمان.

أشعر بانكساره، وتوقه لمعرفة أصله، ولقاء أهله، أستشعر غربتهُ في تلهفه للعودة للعراق وتطوعه لإغاثة ضحايا الحرب في نينوى كلها تخبرني أنّه يبحث عن جذوره فلا يجدها ...

قاطعتُ محيي الدين :

_ هل لديك صورة لزياد أرني لو سمحت.

تناول العجوز هاتفه و نقر على الشاشة بضع نقرات هنا وهناك، ثم أدار الشاشة صوبي فظهر لي شابٌ وسيم بشعر بني غامقٍ وعيونٍ زرقاء واهدابٍ كثيفةٍ وذقنٍ بارزٍ، قلَّب الرجل في هاتفه وكلما ظهرت صورة لزياد أدار الشاشة لي ...

غادرت المقهى بعدما اتفقنا على لقاء يجمعني بزياد نفسه بعد يومين .

حين وصلت البيتَ اكتشفت أن الكهل الطيب قد أرسل لي مجموعة كبيرة من صور زياد .

اخترت إحدى تلك الصور ونشرتها في مجموعة المحادثة الخاصة بالعائلة ...

علقت آمنة :

_ من هذا بابا ؟ يشبه عز.

ثم كتبت أمنية :

_ من أين تعرف زرياب بابا؟

اكتفت كلٌ من نيسان وآسيا بالمتابعة بصمت.

كتبت مشيرًا لأُمنية :

_ من زرياب؟

_ طبيب متطوع إيطالي من أصول عراقية يعمل معي في إسعاف ضحايا الحرب، عازف عود محترفٍ .

سكنت شاشة المحادثة لبضع ثوان، أرسلت أمنية بعدها رابطًا إلكترونيًا وكتبتْ :

_تابع بابا كانت هذه مشاركتهُ في الحفل الخيري الذي حدثتك عنه قبل أسبوع.

كانت آسيا أول من شاهد الرابط ، حذوت حذوها ونقرت على الرابط ، ظهر زرياب على كرسي بلا مساند وسط جمهور لا يتجاوز الثلاثين فردًا، يعانق عودًا تداعب اصابعه أوتاره بتناغم وخفةٍ نقرتُ علامة إلغاء كتم الصوت، فانسابت انغام العود من الهاتف كسرب يراعات حلّقت لتملأ المكان بندف الضياء السديمي ، أعرف المعزوفة جيدًا ومن لا يعرفها :

تايبين وما نمر مرة بدربكم ...

استرسل زرياب في عزفه وأنا أدندن في نفسي :

تايبين ما نمر مرة بدربكم

حالفين ما نرد يوم على حبكم

غلطة مرت و انتهت
شمعة العشرة انطفت
والذنب هو ذنبكم
والذنب هو ذنبكم
أرسلت آسيا وجهًا حزينًا بعين دامعة
شاشة الهاتف تقول إنّ آسيا تكتب ...تمت

المحتويات

المقدمة..... ٩

كابوس ١١

صادق ١٢

ليلةُ العشاء الأخيركاميرا كوداك الفورية..... ١٣

مدارات العطر..... ١٥

العش المحترق..... ١٩

خمروحرب..... ٢٦

ليلةُ الجديلة ، نيسان ٣١

معركةُ شرق البصرة ٣٤

قطارُالليل إلى بغداد..... ٤٠

فتاةٌ بكماءٌ في قريةٍ نائيةٍ..... ٤٦

رحلةٌ صوبَ المجهول ٤٩

رحلةٌ إلى المجهول ٥٢

أمين..... ٦٠

العُقاب الأعرج ٦٠

نور ٦٧

سنجار ٦٩

قَصةُ شَعرٍ جديدةٍ ٧٢

دار الأمل لرعاية الأيتام ٧٤

شرشور وزعبور ٧٩

قيامة ٩١

ركوة القهوة ٩٦

وطنٌ صغيرٌ ١٠١

لقاءٌ أخير ١٠٦

الأميرةُ الحزينةُ ١١١

الحياة قصيرة ١٢٥

مدرسة النخيل ١٣٢

ليالٍ بلا قمر ١٤٣

زوّارُ الفجر ١٤٧

لقاء وبَوح ١٥١

طابور التلاميذ..... ١٥٨

الطفلة البكماء تسعل ١٦١

ماكنة الخياطة ١٦٥

مصادفات وتدابير ١٦٨

آمنة ١٦٩

الشرير وعازف العود..... ١٧٠

زرياب ١٧٣

نتحدث عن الماضي كمن يستعيد ذكريات الراحلين، بلسان متسامح يغفر لياليه الثقيلة ويضفي على أحزانه لمسة أناقة تمنحه صدقًا وعمقًا. نصف لحظاته المؤلمة كغلالة سوداء أحاطت قلوبنا وخنقت أنفاسنا، فنروي مالح الدموع المخفي خلف جدران الصمت. نتجاهل السعادة العابرة ونطيل الحديث عن السقوط، النهوض، وتسلق الهاوية، وكأن الألم هو محور الذكريات.

المسرات الماضية تبدو مثالية: طعام الجدة الذي لا مثيل له، ورحلة المدرسة التي تفوقت على كل سفرات العمر. أبطال الحكايات خارقون: أم لا ينفد صبرها، جدة تنطق بالحكمة، وآباء يحمون البيت بلا كلل. نرسم صورة للماضي كجنة آمنة، رغم معرفتنا بأن الواقع لم يكن كذلك.

نحكي ذكريات الأمس بلغة اليوم، ونصبغها بمشاعر الحاضر. نحاول استذكار وجوه أمهاتنا وأصدقائنا كما هم الآن، ونخلط الذكريات بأوهام العقل. الأحداث التي بقيت عالقة هي تلك التي استحضرناها مرارًا: لقاء الحب الأول، ليالي الحرب، يوم النزوح. أما ما لم نذكره، فقد طمسته الأيام.

نحن نعيد تشكيل الماضي وفق هوى النفس، فنرسمه نقيًا ومنزهًا عن العيوب. هكذا، يصبح الحنين إليه أنينًا دائمًا، ونظل نبحث عن ماضٍ لا نعرفه، ماضٍ نسيناه كما تنسى السماء غيومها بعد العواصف.

9789922832760
دار الإبداع
للطباعة والنشر والتوزيع